

الباب الحادى عشر

أزواجه صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

تعدد زواجه صلى الله عليه وسلم

تعدد الأزواج بعد وفاة السيدة خديجة :

روى الإمام الطبرى بسنده أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى عن تسع زوجات .

ومما هو جدير بالذكر أن تعدد أزواجه صلى الله عليه وسلم إنما كان بعد وفاة أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، وهى أول النساء إيماناً ، وقد عاشرها صلوات الله وسلامه عليه ربع قرن من الزمان ولم يتزوج عليها قط ، وكانت حين تزوجها أرملة فى سن الأربعين وماتت فى الخامسة والستين - على أرجح الروايات - وكان هو صلى الله عليه وسلم عند زواجه منها فى سن الخامسة والعشرين ، وكان عند وفاتها فى سن الخمسين ، وقد ماتت فى حياته الشريفة وقبل هجرته إلى المدينة المنورة بثلاث سنوات، ومما هو جدير بالذكر أنه على كثرة أزواجه الشريفات لم يتزوج بكثراً إلا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

خصوم الإسلام ورد العقاد عليهم :

وإليك ما يقوله فى روعة ظاهرة العلامة العقاد فى كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » ردّاً على خصوم الإسلام الذين أرادوا عمداً وعبثاً تشويه سمعة النبي صلى الله عليه وسلم فى تعدد الزواج :

« ما اتفق خصوم الإسلام عن سوء نية على شىء كما اتفقوا على خطة التبشير فى موضوع الزواج على الخصوص ، فكلهم يحسب أن المقتل الذى يصاب منه

الإسلام في هذا الموضوع هو تشويه سمعة النبي عليه السلام ، وتمثيله لأتباعه في صورة معينة لاتلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق في طلب الإصلاح ، وأى صورة تغنيهم في هذا الغرض الأثيم كما تغنيهم صورة الرجل الشَّهْوَانِ الغارق في لذات الجسد العازف في معيشتة البيئية ورسائله العامة عن عفاف القلب والروح

« . . . ولأنهم لعلى أشد الخطأ في اختيارهم هذه الخطة بعينها ، إذ أن جلاء الحقيقة في هذا الموضوع أهون شيء على المسلم العارف بدينه المطلع على سيرة نبيه ، فإذا بمقتلهم المظنون حجة يكتفي بها المسلم ولا يحتاج إلى حجة غيرها لتعظيم نبيه وتبرئة دينه من قالة السوء الذي يفترى عليه .

« فلا حجة للمسلم على صدق النبي صلى الله عليه وسلم في رسالته أصدق من سيرته في زواجه وفي اختيار زوجاته ، وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها في معيشة نبي الإسلام من مطلع حياته إلى يوم وفاته .

« ما الذي يفعله الرجل الشهوان الغارق في لذات الجسد إذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه محمد بين قومه .

« لم يكن عسيراً عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب وأقن جوارى الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية .

« ولم يكن عسيراً عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة في زمانه .

« فهل فعل محمد ذلك بعد نجاحه ؟

« هل فعل محمد ذلك في مطلع حياته ؟

« كلا لم يفعله قط ، بل فعل تقيضه ، وكاد أن يفقد أزواجه لشكايتهن من شظف العيش في داره .

« لم يحدث قط أن اختار زوجة واحدة لأنها مليحة أو وسيمة ، ولم يبسن بعدراء قط إلا العذراء التي علم قومه جميعاً أنه اختارها لأنها بنت صديقه وصفيه وخليفته من بعده أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

« هذا الرجل الذى يفتى عليه الأئمة الكاذبون أنه الشهوان الغارق فى لذات حسه ، قد كانت زوجته الأولى تقارب الخمسين وكان هو فى عنفوان الشباب يجاوز الخامسة والعشرين ، وقد اختارته زوجاً لها لأنه الصادق الأمين فيما اشهر به بين قومه من صفة وسيرة ، وفيما لقبه به عارفوه وعارفوه والصدق والأمانة فيه ، وعاش معها إلى يوم وفاتها على أحسن حال من السيرة الطاهرة والسمعة النقية ، ثم وفى لها بعد موتها فلم يفكر فى الزواج حتى عرضته عليه سيدة مسلمة رقت له فى عزلته فخطبت له السيدة عائشة بإذنه ، ولم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة ترضيها غير ثنائه على زوجته الراحلة ووفائه لذكراها .

« وما بنى عليه السلام بواحدة من أمهات المسلمين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة ، وإنما كانت صلة الرحم والضمن بهن على المهانة هى الباعث الأكبر فى نفسه الشريفة على التفكير فى الزواج بهن . ومعظمن كنّ أرامل مأيّات فقدن الأزواج أو الأولياء وليس من يتقدم لخطبتن من الأكفاء لهنّ إن لم يفكر فيهن رسول الله .

« فالسيدة سمودة بنت زمعة مات ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة إلى الحبشة ولا مأوى لها بعد موته إلا أن تعود إلى أهلها فيكرهوها إلى الردّة أو تتزوج بغير كفاء لها أو بكفاء لها لا يريدوا ،

« والسيدة هند بنت أبي أمية - أم سلمة - مات زوجها عبد الله المخزومى وكان أيضاً ابن عمها أصابه جرح فى غزوة أحد ففضى عليه ، وكانت كهلة مسنة فاعتذرت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بسنها لتخفيه من خطبتها فواساها قائلاً : سلى الله يُؤجرك فى مصيبتك وأن يخالفك خيراً ، فقالت : ومنّ يكون خيراً لى من أبي سلمة ؟ وكان الرسول عليه السلام يعلم أن أبا بكر وعمر قد خطباها فاعتذرت بمثل ما اعتذرت به إليه ، فطيب خاطرهما وأعاد عليها الخطبة حتى قبلتها ،

« والسيدة رملة بنت أبي سفيان تركت أباها وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فتتصر زوجها وفارقها فى غربتها بغير عائل يكفلها ، فأرسل النبي عليه السلام

إلى النجاشي يطلبها من هذه الغربة المهلكة وينقذها من أهلها إذا عادت إليهم راغمة من هجرتها في سبيل دينها ، ولعل في الزواج بها سبباً يصل بينه وبين أبي سفيان بوشيجة النسب فتميل به من جفاء العداوة إلى مودةٍ تخرجه من ظلمات الشرك إلى هداية الإسلام ،

« والسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها على أبي بكر فسكت ، وعرضها على عثمان فسكت ، وبث عمر أسفه للنبي فلم يشأ أن يضمن على صديقه ووليهِ بالمصاهرة التي شرف بها أبا بكر قبله ، وقال له : يتزوج حفصة من هو خير لها من أبي بكر وعثمان ،

« والسيدة صفية الإسرائيلية بنت سيد بني قُرَيْظَةَ خيرها النبي بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فاخترت البقاء عنده على العودة إلى ذويها ، ولولا الخلق الرفيع الذي جبلت عليه نفسه الشريفة لما علمنا أن السيدة صفية قصيرة يعيها صواحبها بالقصر ، ولكنه سمع إحدى صواحبها تعيها بقصرها فقال لها ما معناه من روايات لا تخرج عن هذا المعنى : إنك قد نطقت بكلمة لو ألقيت في البحر لكدرته ، وجبر خاطر الأسيرة الغريبة أن تسمع في بيته ما يكدرها ويغض منها .

« والسيدة زينب بنت جحش - ابنة عمته - زوجها من مولاه ومتبناه زيد ابن حارثة ، فتفرت منه وعز على زيد أن يروضها على طاعته ، فأذن له النبي في طلاقها ، فتزوجها عليه السلام لأنه المسئول عن زواجها ، وما كان جمالها خفياً عليه قبل تزويجها بمولاه لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولتها ولم تفاجئه بروعة لم يعهدا ،

« والسيدة زينب بنت خزيمة مات زوجها عبد الله بن جحش قتيلًا في غزوة أحد ، ولم يكن بين المسلمين القلائل في صحبته من تقدم لخطبتها ، فتكفل بها عليه السلام ، إذ لا كفيل لها من قومها ،

« وهذا هو الحريم المشهور في أباطيل المبشرين وأشباه المبشرين ، وهذه هي بواعث النفس التي استعصى على المبطلين أن يفهموها على جليتها ، فلم يفهموا

منها إلا أنها بواعث إنسان غارق في لذات الحس شهوان .

« ولقد أقام هؤلاء الزوجات في بيت لا يجدن فيه من الرغد ما يجده الزوجات في بيوت الكثيرين من الرجال، مسلمين كانوا أو مشركين . . . فاتفقن على مفاتحته في الأمر واجتمعن يسألنه المزيد من النفقة ، وهي موفورة لديه أو شاء أن يزيد في حصته من النوى فلا يعترضه أحد ولا يحاسبه عليه ، إلا أن الرجل المُحكَّم في الأنفس والأموال - سيد الجزيرة العربية - لم يستطع أن يزيدهن على نصيبه ونصيبهن من الطعام والزينة فأمهلهن شهراً وخيَّرهن بعده أن يفارقه ولهن منه حق المرأة المفارقة من المتاع الحسن ، أو يقبلن ما قبل لنفسه من ذلك العيش الكفاف . وهذا الخبر يعلمه كل من اطلع على القرآن ووقف على أسباب التنزيل ، وليس بينها ما هو أشهر في كتب التنزيل من نزول هذه الآيات في سورة الأحزاب .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا) .

« . . . أعن° مثل هذا الرجل يقال إنه جلس شهوات وأسير لذات ؟

« . . . أعن مثله يقال إنه ابتغى من رسالته مأرباً يبغيه الدعاة غير الهداية

والإصلاح ؟

« فيم كل هذا الشقاء بأهوال الرسالة وأوجالها ، من مبيعة الشباب إلى سن° لامتعة فيها لمن صاحبه التوفيق والظفر ، أو لمن صاحبه الحيبة والمزيمة ؟

« ومن أراد الدعوة لغير الهداية والإصلاح فلماذا يريد لها ، وما الذي يعنمه

من ورائها ؟

« أترأه يريد ما يخاطراً بأمته وحياته مستخفياً بالهجرة من وطنه والعزلة بين

أهله ، ليسوم نفسه بعد ذلك عيشة لا يقنع بها أقرب الناس منه وأعلامه شرفاً

بالانتماء إليه ؟

« أمن أجل الحس ولذاته يتزوج الرجل بمن تزوج بهن وهو سيد الجزيرة

العربية وأقدر رجالها على اصطفاء النساء الحسنان من الحرائر والإماء ؟
« وهل يتزوج بين الشهوان الغارق في لذات الحس ليقنتدين به في اجتواء

الترف والزينة وخلص الضمير للإيمان بالله وابتغاء الدار الآخرة ؟

« وما مأربه من كل ذلك إن كان له مأرب في طويته غير مأربه في العلانية ؟
وعلام يجاهد نفسه ذلك الجهاد في بيته وبين قومه إن لم تكن له رسالة يؤمن بها
ولم تكن هذه الرسالة أحب إليه من النعمة والأمان ؟

« إن المبشرين المحترفين لم يكشفوا من مسألة الزواج في السيرة النبوية مقتلا
يصيب محمداً أو يصيب دعوته من ورائه ، ولكنهم قد كشفوا منها حجة ، لا حجة
مثلها في الدلالة على صدق دعوته وإيمانه برسالته وإخلاصه لها في سره كإخلاصه
لها في علانيته ، ولو أنهم يعولون على جهل المستمعين لهم لا يجتهدوا في السكوت عن
مسألة الزواج خاصة أشد من اجتهادهم في التشهير بها واللغظ فيها .

التعدد مشروع في الأديان الكتابية :

ويتعرض العلامة العقاد مرة أخرى لتعدد الزواج في كتابه « الفلسفة القرآنية »
فيقول رحمه الله :

« من الأوهام الشائعة بحكم العادة أن الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي
أباح تعدد الزوجات بين الأديان الكتابية .

« وهذا وهم قد سرى إلى الأخلاذ بحكم العادة كما أسلفنا ، لأن الواقع الذي
تدل عليه كتب الإسرائيليين والمسيحيين أن تعدد الزوجات لم يحرم في كتاب من
كتب الأديان الثلاثة ، وكان عملاً مشروعاً عند أنبياء بني إسرائيل وملوكهم ،
فتزوجوا بأكثر من واحدة وجمعوا بين عشرات الزوجات والحواري في حرم واحد ،
وروى « وستر مارك » العالم الحجة في شؤون الزواج على اختلاف النظم الإنسانية :
أن الكنيسة والدولة معاً كانتا تُقرّان تعدد الزوجات إلى منتصف القرن السابع
عشر ، وكان يقع غير نادر في الحالات التي لا تعنى بها الكنيسة عنايتها بزواج
الأسر الكبيرة .

وكل ما حدث في القرن الأول للمسيحية أن الآباء كانوا يستحسنون من رجل

الدين أن يقنع بزوجة واحدة ، وخير من ذلك أن يترهب ولا يتزوج بته ، فكانت الفكرة التي دعت إلى استحسان الزواج الموحد ، هي فكرة الاكتفاء بأقل الشرور ، فإن لم تيسر الرهبانية فامرأة واحدة أهون شرًا من امرأتين .

« . . . فكان تعدد الزوجات مباحًا في الأديان الكتابية جميعًا ، ولم يحرم حين حرم إكباراً للمرأة وتنزيهاً لها عن قبول المشاركة في زوجها بل كانت الفكرة الأولى في تحريمه أن المرأة شر يكتفى منه بأقل ما يستطيع .

« . . . أباحت شريعة الإسلام تعدد الزوجات ولم تفرضه كما يبدو إلى انحلال المتكلمين في هذا الموضوع من الغربيين .

« . . . فلا الأديان الكتابية حرّمت تعدد الزوجات ، ولا الإسلام حرّم توحيد الزوجة وأوجب على المسلم أن يتزوج أكثر من واحدة ، وإنما أباح تعدد الزوجات مع ضمان العدل بين النساء .

ويقول رحمه الله في كتابه « عبقرية محمد » .

« نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة في شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق ، في غير مشقة عندهم ولا معابة .

« ونسوا أنه بقي إلى نحو الجامسة والعشرين لم يتعسف في طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور إليه بين الأسر وبين الفتيات .

« ونسوا أنه لما تزوج في تلك السن كان زواجه بسيدة في الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين ،

« ونسوا أنه اختار أحساباً في حاجة إلى التآلف أو الرعاية ولم يختار جمالاً مطلوباً للمتاع .

« ونسوا أن الرجل الذي وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير ، ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه وإرضاء نفسه ، ولو شاء لما كلّفه إرضاء نفسه وإرضاؤهن غير القليل بالقياس إلى ما في يديه .

« نسوا كل هذا وهو ثابت في التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتي جمع بينهن عليه السلام ، فلماذا نسوه ؟

« نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة ، وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغضاء عنها ، لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها .

رد الدكتورة بنت الشاطيء :

وحيا الله الدكتورة « بنت الشاطيء » إذ قالت في كتابها « نساء النبي » .

« . . . وقد قال المستشرقون في تعدد الزوجات ما قالوا ، ولم يروا في هذا الجمع بين عدد النساء تحت رجل واحد سوى مظاهر مادية مسرفة ، وإنه لضلal أملاه التعصب الأحمق والهوى الجامح وانحراف عن النهج العلمى الذى يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة صنعتها بيئة تفصلها عن بيئة محمد آباد^(١) وأبعاد .

« وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعى أن نظام الزوجة الواحدة يتبع في دقة وينفذ نصاً وروحاً .

وجهة نظرى :

هذا وأقول بعد ما تقدم إن قول الله تعالى في سورة الأحزاب : (لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا) . يستشف منه الفطن أن زواجه صلى الله عليه وسلم إنما هو باختيار الله له ، ولا تهمة مع الحلال ، ولا ماثم في الطيب المباح ولذلك يقول تعالى في زواجه بالسيدة زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) .

كما دفع الله عنه الحرج في تعدد زواجه وزيادة عدد أزواجه عن الحد الأقصى الذى يجمعه المؤمن وهو أربع نسوة ، وكذلك في زواجه بمؤمنة تهبه نفسها خالصة له من دون المؤمنين . فقال تعالى في سورة الأحزاب : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عُمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) . فهو صلى الله عليه وسلم لا يتصرف في زواجه إلا بوحي من ربه وتستشف ذلك عن قرب من قوله تعالى في سورة التحريم : (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) . وتأمل في وصف ما يختاره الله لنبيه من النساء من ذوات التقوى والإيمان الحق ، وكيف علّق الله إبداهن بطلاقهن ، فحيث تمت توبتهن ولم يطلقهن فقد بقين بأمر الله في شرف عصمته صلى الله عليه وسلم وهن متحليات بصفات المؤمنات القانتات عليهن رضوان الله .

وإذا أردت أن تعرف الخلق النبوى الزكى في معاملتهن الكريمة مع كثرهن فاقرا بتدبر قوله تعالى في سورة التحريم : (لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ) . وانظر كيف كشف الله بقوله : (تبتغي مرضاة أزواجك) عن نيته الخفية في العمل على تطيب نفوسهن ، ثم اقرأ بعد ذلك ما هدّد الله به زوجته الكريمة عائشة وحفصة رضى الله عنهما في السورة ذاتها (إِنْ تَوُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) .

فانظر رعاك الله كيف كانت غيرة الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكيف كانت ولايته له وعنايته به . وإذا جاء التهديد بهذه القوة لزوجتيه وهما ابنتا صديقيهما الأثيرين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما وقد غارتا غيرة نسوية معتادة من النساء بطبيعتهن ، فكيف بمن تطاول على حرمة أو سنته من الجاهلين أو الحاقدين والحاسدين ، أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه ، وجعلنا ممن يصونون حرمة ، ويحفظون عهد ، وينصرون سنته ، في الغيب والشهادة .

هذا وأضيف أن العرف لم يكن إلى عهد قريب يستنكر تعدد الزواج وخاصة في الريف حيث يعتز الناس بعصباتهم وذرايهم ، ولقد تزوج جدى لأبى كثيرات وأنجب كثيراً من الأبناء والبنات حتى ورثه ستة عشر رجلاً وثلاث عشرة بنتاً وأربع نسوة ، ولم يكن المجتمع ينكر عليه ذلك بل كانوا يعدونه مظهراً من مظاهر العيشة الراضية الناعمة ، وكان أعمامى جميعاً يعتزون بأبى ويقدمونه عليهم بفضله ، ولم يكن له شقيق منهم على كثرتهم ، وكذلك عدد أخوة جدى زوجاتهم وإن لم يصلوا بالعدد إلى ما وصل إليه جدى رحمهم الله جميعاً ، وكان القوم يفرحون بمصاهرة جدى لهم ، مع علمهم بضرائر يعشش في بيت واحد ، حيث كان العرف جارياً بالتعدد دون إنكار .

وإلى اليوم يقع التعدد في المملكة العربية السعودية كأمر عادى وتعيش أكثر من زوجة مع زوجها في بيت واحد ، وشهدنا ذلك بأنفسنا ، وها هي ذى إيطاليا ، وهي مهذب البابا الكاثوليكي ، قد أباحت الطلاق بقانون صدر قريباً ، ومؤدى الطلاق أن يتعدد الزواج الذى يستنكره على نبينا صلى الله عليه وسلم المتعصبون من المستشرقين والمبشرين ، فإذا هم قائلون للحكومة إيطاليا التى واجهت الحياة الاجتماعية بواقعها العملى في غير مغالطة أو تدليس ، وإن عارضها رجال الدين المسيحي عن ظن بأن أهون الشرور الزواج بشريرة واحدة ، دون استناد إلى نص دينى بتحريم التعدد في كتب العهد الجديد ، وكتب العهد القديم تبيح التعدد ، وهى التى تستند إليها كتب العهد الجديد عند عدم النص فيها على التحريم ، وقد بان لك مما قاله العلامة العقاد أن التحديد بواحدة جاء من رجال الدين المسيحيين أساساً أن المرأة شر فليكن الاقتران بها في أضيق الحدود إن لم يستطع رجل

الدين أن يعيش بغيرها ، ولم يكن التحديد بواحدة راجعاً إلى نص ديني .
 وإذا كان المستشرقون والمبشرون يخوضون في مسألة التعدد فلماذا ينسون أن يذكروا
 لنبينا صلى الله عليه وسلم أنه رفض أن يتزوج إمامنا على بن أبي طالب بزوجة أخرى
 على ابنته الزهراء ، وهو ما ينبت أنه أراد التعدد لنفسه عن غرام بالنساء الكثيرات ،
 والقصة معروفة ، فقد همّ الإمام على أن يتزوج من بنت عمرو بن هشام بن المغيرة
 المخزومي ، فذهبت السيدة الزهراء إلى أبيها باكيةً وقالت له : يزعمون أنك لا تغضب
 لبناتك . وجاء بنو هشام بن المغيرة ليستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم في تزويج
 على بابنتهم ، فصعد صلى الله عليه وسلم المنبر والغضب باد عليه وقال على
 مسّمع من الحاضرين : « إن بنى هشام بن المغيرة استأذوني أن ينكحوا ابنتهم
 على بن أبي طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم إلا أن يجب ابن أبي
 طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فإنما ابنتي بضعة مني يريني ما رايها
 ويؤذي ما آذاها ، وإني أتخوف أن تفتن في دينها . وما قاله عندئذ صلى الله عليه
 وسلم : « إني لست أحرّم حلالاً ولا أحل حراماً ، وإكن الله لا يجمع بنت رسول
 الله وبنت عدو الله في بيت واحد أبداً » .

وعمر بن هشام والد تلك الفتاة التي أراد أن يتزوجها الإمام على هو عدو
 الله أبو جهل الذي طالما آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شخصه وفي رسالته
 وفي أصحابه .

وكانت تلك الفتاة قد أسلمت وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد قلت
 في كتابي « السيدة خديجة الكبرى » :

« والإمام على كرم الله وجهه كان ينظر إلى السيدة الزهراء نظرتين ، أولاهما
 أنها زوجته الحبيبة ، وثانيتها أنها بنت الرسول الذي آثره بها على أبي بكر وعمر ،
 ومعاذ الله أن يقصد إيذاءها ومضايقتها ، لذلك نراه كف عن الزواج عندما تكشف
 له غضبها وغضب الرسول عليه الصلاة والسلام .

« وإنك لتعجب من رقة شعور الإمام ، ومن سماحة زوجته الزهراء رضی الله
 عنهما ، فإنه حين عاد الإمام إلى داره بعد أن سمع الكلام المتقدم من رسول الله صلى
 الله عليه وسلم ، ورأى زوجته الزهراء تبكي اعتذر لايها قائلاً :

« هبيني أخطأت في حقلك يا فاطمة ، فثلك أهلٌ للعفو والمغفرة » .

فأجابته : « غفر الله لك يا ابن العم » .

وقد سقت ما تقدم للتدليل على أن تعدد الزوجات كان أمراً عادياً في مألوف ذلك الزمان من جهة ، ولأدلال على أن التعدد ليس بالأمر المحتمى في الإسلام من الجهة الأخرى كما يدعى أعداء الإسلام .

ولا يفوتنا بعد هذا أن نوجه النظر إلى أن بيت النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان ينزل فيه جبريل عليه السلام بوحى الله ، لم يكن بيت المادة الحسية والمحظوظ الجسدية التي يراها أعداء الدين أنها الغاية القصوى من حياتهم ، بل كان بيت الروح الذي يُخرج الناس من ظلمات المادة الفانية إلى نور اليقين بالله واليوم الآخر ، ذلك النور الذي يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم . وقد رأى هؤلاء الأعداء على الرغم من غشاوة أبصارهم كيف آثر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم خشونة العيش وكفافه في بيت النبوة على الحياة الدنيا وزينتها حين خيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين نعيم الدنيا الفاني ونعيم الآخرة الباقي ، وليس هذا الإيثار إلا من نزعات الروح ونور الوجدان .

وقد مرَّ علينا قول الله تعالى لأزواجه صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب (وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) . فبيوتهن ليست كبيوت غيرهن التي لا ينزل فيها وحى السماء ، ومن ثم قال تعالى لهن مرة أخرى في السورة ذاتها : (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ...!) . كما قال لهن مرة ثالثة : (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا) . وإنما افترقن رضوان الله عليهن ، كما قلنا من قبل ؛ عن سائر النساء بالتربية الروحية العالية وإن اتفقن مع النساء في النوع .

وإذا كان ذلك شأنهن عند الله تعالى فكيف بشأن الرسول الأكرم صلى الله

عليه وسلم ، إنه تحلى في أكمل الصور التي لا يستطيعُ مَحْمَى القلوب أن يروها وإنما يراها أهل الإيمان الحق ، بنور البصيرة والوجدان واليقين .

ولست أدري كيف يجهل المسلم أن الإسلام ينظر للزواج نظرة روحية قبل أن ينظر إليه نظرة مادية . ألم يقل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « وفي بُضْعِ (١) أحدكم صدقة » قالوا يارسول الله نأتى النساء بشهوة وتكون لنا صدقة ، فقال صلى الله عليه وسلم لسائله مجيباً ومُعَلِّماً : أ رأيت لو وضعتها في الحرام أكنت تُؤزِر ؟ قال نعم ، قال فكذلك إذا وضعتها في الحلال فأنت تؤجر .

إن الله تعالى يقول في منته علينا بالزواج : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) . ، فأبرزت الآية الكريمة إلى جانب السكون المودة والرحمة اللتين تربطان بين الزوجين وهما من سمات الروح وليستا من سمات الجسد .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر يقول : ما أتيت أهلى قط بنية الشهوة ولكن بنية أن يرزقنى الله منها من يوحد الله ولا يشرك به شيئاً ، وكأنه رضى الله عنه يُنْهَمنا بذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تناسلوا تكثروا فإني مباح بكم الأيام يوم القيامة » .

لا ، بل إن الله تعالى جعل الألفة الروحية في المجتمع الإنساني الهدف السامى من اقتران الرجل بالمرأة فقال تعالى مخاطباً جميع الناس مؤمنهم وكافرهم : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ) . والتعارف سبيل الألفة الروحية وتبادل المنافع ، فأساس المنافع المادية ألفة روحية إنسانية ، وذلك ما رفع الله به العلاقة الجنسية بين الآدميين عن درجة الجنسية البهيمية .

وإذا كانت الناحية الروحية ظهرت بارزةً هكذا في العلاقة الزوجية بين الزوجين في المجتمع الإنساني العام فكيف كانت قائمة في بيت النبوة الذي شعت أنواره على العالمين ، فنعم بها المؤمنون وتعامت عنها قلوب الجاهلين من الجاحدين والمرقين .

إن الصّحاح روت أن حنظلة رضی الله عنه لَسَقِيَهُ أَبُو بكر الصديق رضی الله عنه فقال له : كيف أصبحت يا حنظلة ؟ قال : نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ماتقول ؟ قال إنّنا نكون عند رسول الله يُدَكِّرُنَا بِالْحِنَةِ وَالنَّارِ حَتَّى كَأَنَّ نَرَاهُمَا رَأَى عَيْنٍ ، فإذا خرجنا من عنده عافسنا (١) الأولاد والزوجات والضيعات فنسينا كثيراً ، قال والله إني أجد مثل ذلك انطَلِقُ بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلقنا إليه فذكروا له ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذِّكْرِ لصافحتكم الملائكةُ في فُرُشِكُمْ وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ، ساعة وساعة ولكن يا حنظلة ساعة وساعة » . أقول وإذا كان ذلك شأن من اجتمع به صلى الله عليه وسلم من الصحابة فكيف بشخصه صلى الله عليه وسلم وكيف بأزواجه المؤمنات القانتات اللاتي عاشرنه عن قرب واتصال روحى .

إننا لم نقصد من كلامنا الرد على المتعصبين من المستشرقين ، فإنهم يعرفون الحق ويمجدون عنه عامدين ، وإنما قصدنا أن نحمل الناشئ من المسلمين الذى قد يقرأ لهم قليلاً أو كثيراً فيتأثر بما يتقولون به بهتاناً وظُلْمًا عن ظنّ منه بأنهم قالوا ما قالوه عن بحث علمى وغرض سليم ، في حين أن هوى نفوسهم أضلّهم عن الحق وأرداهم في الضلال القديم .

زواج الهبة :

إن الله تعالى أباح أن تهب بعض المؤمنات نفسها له صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : (وَأَمْرًا مَوْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا

(١) عافسنا أى خالطنا وتشاغلنا .

خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) . أَى إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا بِدُونِ صِدَاقٍ وَهَى مَزِيَّةً لَهُ وَحَدَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَتَعَدَاهُ إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ .

وفى تقييد الله الواهبة نفسها بالإيمان مزية أخرى له صلى الله عليه وسلم وللواهبات ، فإن الكافرة لا تحل له ، وقد قال ابن العربي : ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظه فيه أكثر ، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أظهر ، فجوز لنا (أَى نحن المؤمنين) نكاح الحرائر الكتابيات ، وقصره صلى الله عليه وسلم على المؤمنات بلحلالته ، وإذا كان لا يحل له من لم تهاجر من المؤمنات لنقصان فضل الهجرة ، فأحرى ألا تحل له الكافرة الكتابية لنقصان الكفر .

أقول : وفى ذلك إشارة إلى قول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِيُكَيَّلَ بِكُمْ عَلَى تَفْهِيمٍ) .

فقوله تعالى : (اللاتي هاجرن معك) أى لا يباح لك من قرابتك إلا من هاجر إلى المدينة لقوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا) . فمن لم يهاجر لم يكمل ، ومن لم يكمل لم يصلح للنبي صلى الله عليه وسلم الذى آتاه الله كل الشرف والكمال ، صلى الله عليه وسلم ، ومن باب أولى لا يحل له صلى الله عليه وسلم نكاح الحرة الكتابية وإن حلت لغيره من المؤمنين .

وقد روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أما تستحى امرأة أن تهب نفسها لرجل ؟ حتى أنزل الله تعالى : (تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ

وَتُوْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) . فقلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك .
وقال الزمخشري الموهوبات أربع : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت
خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، ونحوثة بنت حكيم .
ويقول الإمام القرطبي : وفي بعض هذا اختلاف ، قال قتادة : هي ميمونة
بنت الحارث ، وقال الشعبي هي زينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ،
وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل هي أم شريك بنت جابر الأسدية ، وقال
عروة بن الزبير هي أم حكيم بنت الأوقص السلمية .

الفصل الثانی

سيداتنا أمهات المؤمنین رضی الله عنهن

ترتيب الأزواج الطاهرات :

ترتيب نسائه التسع اللاتي توفى عنهن صلى الله عليه وسلم - فيما رواه الإمام الطبري - كما يلي :

١ - السيدة سودة بنت زمعة (وكانت ثيباً) ، بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد وفاة السيدة خديجة وهاجر بها إلى المدينة (وقد توفيت سنة ٥٤ هـ) .

٢ - السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضی الله عنهما ، وهي البكر الوحيدة بين أزواجه رضی الله عنهن (وقد توفيت سنة ٥٩ هـ) .

٣ - السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضی الله عنهما ، وكانت ثيباً رضی الله عنها (وقد توفيت سنة ٤٥ هـ) ، وقد طلقها رسول الله طلاقاً واحداً حين أفشت للسيدة عائشة ما كان أسره لها رسول الله صلى الله عليه وسلم من تحريم مارية (أو العسل في رواية أخرى) فقال لها أبوها : لو كان في آل الخطاب خير لما كان رسول الله طلقك ، ثم شفع في مراجعتها جبريل عليه السلام ، وفي قول آخر إنه عليه الصلاة والسلام هم بطلاقها ، فقال جبريل : لا تطلقها فإنها صوامة قوامة وإنما من نساك في الجنة ، فلم يطلقها صلى الله عليه وسلم .

٤ - السيدة أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة رضی الله عنها ، وكانت ثيباً وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل واقعة الأحزاب سنة ثلاث من الهجرة (وسنة أربع في قول آخر) ، وقد توفيت سنة ٥٩ هـ على الأصح .

٥ - السيدة جُوَيْرِيَّة بنت الحارث وكانت ثيباً وقد تزوجها رسول الله صلى الله

عليه وسلم سنة خمس في عام المريسيع ، وكانت صفيته يوم المريسيع فأعتقها وتزوجها وسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عتقَ ما في يده من قومها فأعتقهم لها ، رضى الله عنها « وقد توفيت سنة ٥٦ هـ » .

٦ - السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وكانت من مهاجرات الحبشة هي وزوجها ، فتنصر زوجها وصبرت هي على إسلامها ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ليخطبها له ، وذلك في سنة سبع وبعث بها النجاشي بعد زواجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم (وقد توفيت سنة ٤٤ هـ) .

٧ - السيدة زينب بنت جحش ، وكانت قبل زواج الرسول صلى الله عليه وسلم متزوجة من مولاة زيد بن حارثة رضى الله عنه ، فلما طلقها زيد زوجها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وكان سفيره في ذلك جبريل عليه السلام ، وكانت رضى الله عنها تفتخر على نساءه الأخرى وتقول : أنا أكرمكم ولبياً وأكرمكم سفيراً . زوجكن آباؤكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات والسفير في ذلك جبريل عليه السلام (وقد توفيت سنة ٢٠ هـ) وهي بذلك أسرعهن لحاقاً به صلى الله عليه وسلم . وقد قال صلى الله عليه وسلم لنسائه يوماً « أسرعكن لحاقاً بى أطولكن يداً . فجعلن يقسن أيديهن وما منهن إلا من تمنى أن تكون هي صاحبة اليد الطولى ، ثم ظهر لهن أن المراد بطول اليد « الصدقة والعمل الصالح » فغبطن زميلتهن السيدة زينب هذه ، وكانت رضى الله عنها تعمل بيدها وتتصدق كثيراً على الفقراء .

٨ - السيدة صفية بنت حيي بن أخطب ، وكانت صفيته يوم خير ثم عرض عليها الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها سنة ست من الهجرة (وقد توفيت سنة ٥٠ هـ وقيل ٥٢ هـ) .

٩ - السيدة ميمونة بنت الحارث ، وكانت ثيباً ، وهي أخت أم الفضل امرأة عمه العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما ، وقد تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرف في عمرة القضاء . والقرشيات من أزواجه الطاهرات خمس (١) وهن

(١) أى غير سيدتنا خديجة التى توفيت فى حياته الشريفة صلى الله عليه وسلم ، أرسع الله لها فى رضوانه .

سيداتنا وأمّهاتنا: عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضی الله عنهن ، وثلاث من سائر العرب وهن سيداتنا وأمّهاتنا : ميمونة وزينب بنت جحش وجويرية وواحدة من بنى هارون وهى سيدتنا وأمنا صافية .

وأضاف الإمام الطبرى يقول :

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم السيدة زينب بنت خزيمة وهى التى يقال لها أم المساكين ، من بنى عامر بن صعصعة وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب أخى عبيدة بن الحارث ، وقد توفيت بالمدينة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ٣٩ شهراً من الهجرة (وعاشته ثمانية أشهر) .

وعدّد الإمام الطبرى أزواجه اللاتى لم يدخل بهن ، ثم قال : وأفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ريحانة بنت زيد من بنى قريظة ، وأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم مارية القبطية ، أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية ، فولدت له إبراهيم عليه السلام .

عناية الله بالأزواج الطاهرات :

هذا والناظر فى كتاب الله عز وجل ، يرى أن نساء الشريقات صلى الله عليه وعليهن كن موضع عناية خاصة من الله تعالى ، وإليك البيان :

أولاً : قال تعالى فى سورة الأحزاب : (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) . ففرض الله لهن الأمانة والحرمة على جميع المؤمنين . ويقول الإمام القرطبي رضی الله عنه : وقد شرف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين ، أى فى وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال ، وحجبهن رضی الله عنهن بخلاف الأمهات ، ثم هذه الأمانة لا توجب ميراثاً كأمانة التبنى ، وجاز تزويج بناتهن ولا يُجعلن أخوات للناس . وأضاف الإمام يقول : واختلف فى كونهن كالأمهات فى المحرم وإباحة النظر على وجهين :

أحدهما : هن محرم ، لا يحرم النظر إليهن .

وقد التزم رضی الله عنهن ما وعظهن به الله حتى لقد قيل للسيدة سَوْدَة رضی الله عنها : لم لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك ، فقالت : قد حججت واعتمرت فأمرني الله أن أقر في بيتي . قال الراوى : فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها .

أما ما كان من خروج السيدة عائشة للعراق فقد كان للإصلاح بين إمامنا على وطلحة والزبير باعتبارها أم المؤمنين ، ولم تكن ولا كانوا جميعاً يتوقعون أن يقع بين الفريقين القتال المرير الذى وقع فى معركة « الجمل » ولكن غلب القضاء ، وندم كل من طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وتابوا إلى الله توبة نصوحاً رضی الله عنهم .

وسأتعرض فى الفصل الثالث لتفاصيل موقف أم المؤمنين عائشة فى معركة « الجمل » إتماماً للفائدة .

ثالثاً : وقد خاطب الله السيدتين عائشة وحفصة كذلك خطاباً مباشراً فى سورة التحريم ، فقال تعالى : (إِنَّ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) .

ثم وجه سبحانه الخطاب المباشر لجميعهن فقال تعالى فى سورة التحريم (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) .

أما ما خوطب به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بداية سورة التحريم فهو قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ لَبِغْتَنِي مَرَضًا أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) .

وقد روى الدارقطنى عن ابن عباس عن عمر قال : دخل رسول الله صلى

الله عليه وسلم بأُم ولده « مارية » في بيت « حفصة » فوجدته معها ، وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها فقالت له : تُدْخِلُهَا بَيْتِي ؟ ما صنعتَ بي هذا من بين نساتك إلا من هواني عليك ، فقال لها : لا تذكرى هذا لعائشة فبئى (أى مارية) حرام علىّ إن قربتها قالت حفصة : وكيف تحرم (١) عليك وهى جاريتك ، فحلف لها ألا يقربها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تذكريه لأحد » فذكرته لعائشة ، فألى صلى الله عليه وسلم لا يدخل على نسائه شهراً ، فاعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة فأنزل الله عز وجل (يا أيها النبي لم تحرم ما أحلّ الله لك ...)

وقد قلت في محاضرة لى ألقيتها بنادى التجارة منذ عشر سنوات ما يأتى :

« والمقصود بالتحريم هنا هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج لا اعتقاد كونه حراماً بعد ما أحلّه الله تعالى ، وكان الدافع له صلى الله عليه وسلم على التحريم غرضاً نبيلاً كشف الله سبحانه عنه بقوله تعالى : (تبتغى مرضاة أزواجك) وما أعظمه من خلق رفيع وكيف لا يفعل وقد قال صلوات الله وسلامه عليه : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم » .

وأود أن أسترعى النظر إلى السياق الكريم الذى بدأت به السورة ، والذى تضمن تعظيم الرسول وتوقيره بقوله تعالى (يا أيها النبي) .
ثم أضفت قائلاً :

« والمغفرة والرحمة التى جاءت بعد السؤال (لِمَ تُحْرَم . . .) تنصرفان إما إلى تضييقه صلى الله عليه وسلم على نفسه وإما إلى العدول عن المحلوف عليه عن اليمين ، ولا ينصرفان ألْبَتَّةَ إلى ذنب يؤخذ عليه ، إذ ليس له صلى الله عليه وسلم صغيرة ولا كبيرة ، وكيف يعد ذلك ذنباً مع أن الله أكرمهم فى هذه الواقعة فى ذاته ، وأكرم به أمته ، بأن أحلّ للأمة عقدة الإيمان فقال تعالى :

(١) وفى رواية مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمشى عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً ، قالت فتواطأت أنا وحفصة أن آتيننا ما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلتقل إني أجد منك ريح مغافير : أكلت مغافير (حلواء من صمغ متغير الرائحة) فدخل على إحداها فقالت له ذلك ، فقال بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له فتزل (لم تحرم ما أحلّ الله لك) إلى قوله (إن تتوبا إلى الله) لعائشة وحفصة .

(قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ . . .) فأجاز بذلك التحلل من اليمين بكفارتها إذا أحب الحالف استباحة المحلوف عليه وهو قوله تعالى في سورة المائدة: (لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

« وانتفاعاً بهذا الحكم الذي وسَّع الله به على الأمة المحمدية كفرَّ صلى الله عليه وسلم عن يمينه وعاد إلى عِشْرَةِ السَّيِّدَةِ مَارِيَةَ فَعَمَّ سَبْحَانَهُ الرَّحْمَةُ بِرِكَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

« وكيف تعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ في هذه الواقعة مع أن الله كشف له الخبيء فيما تحدثت به السيدة حفصة للسيدة عائشة ، مخالفة بذلك ما وصاها به صلى الله عليه وسلم من كتمان الأمر ، وذلك مما تشير إليه الآية الكريمة :

(وإذ أسرَّ النبيُّ إلى بعض أزواجه حديثاً فلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ) .

« ثم وليَ هذا من باب التكريم والغيرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نزل التهديد من السماء لزوجتيه حفصة وعائشة رضى الله عنهما في قوله تعالى : (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا . . .) وصغت معناها : مالت عن الحق .

« وهذا التهديد يكشف بكل وضوح عن رضا الله السامى وعن تصدَّى الله للدفاع عن مقامه صلى الله عليه وسلم ، ولا عجب فهو الحبيب المقرب والرسول المؤيد .

« ولو كان فيما أتاه صلى الله عليه وسلم من تحريم « مارية » ما يؤخذ عليه ، ما واجهه الله زوجته اللتين تظاهرتا عليه بهذا الخطاب ، وتهديدهما بهذه القوة البالغة ينفي أى مأخذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويلقى بالمأخذ على سيدتنا حفصة وعائشة رضى الله عنهما لأنهما الطرف الآخر فى الحصومة ، ومن أصدق من الله حكماً .

« وما قرأت هذا التهديد مرة إلا تعاطمتنى حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقول لنفسى إذا جاء التهديد لزوجتيه المتظاهرتين ، وتعدى منهما لسائر أزواجه بهذه القوة عن غيرة نسائية طبيعية ، فكيف بالأمر الأخرى التى تنطوى على نقد لسنته صلى الله عليه وسلم ، أو الإساءة إلى أصحابه وأجابه ؟ رزقنا الله وإياكم سمو الأدب فى حقه صلى الله عليه وسلم .

« وقد تابت بحمد الله الزوجتان الكريمتان المتظاهرتان ، وأتاب قلباهما الظاهران إلى الله ، وكذلك فعل سائر نساته صلى الله عليه وسلم فلم يطلقهن ، ولم يُبدِ له الله خيراً منهن لأن الإبدال كان مشروطاً بالطلاق فى قوله تعالى : (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ) . . . فبقين جميعاً فى عصمته وفى خيرٍ من عشرته صلى الله عليه وسلم ، وهذا من فضل الله عليهن رضى الله عنهن .

وأود أن أضيف الآن إلى قولى المتقدم أن ناساً من المتخرفين يتجرأون على مقامه صلى الله عليه وسلم فيما يكتبون ، ويحتجون فيما يخرجون به عن الأدب بأنه بشر مثلنا ، ويسيتون فهم هذه البشرية ، فيقيسون نزعاته بنزعاتنا بجامع البشرية بيننا وبينه صلى الله عليه وسلم ، مع أنهم لو تأملوا فى مثل قوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى) ، وفى مثل قوله تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) . وفى مثل قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) . بل أقول وفى مثل آيات سورة التحريم التى خاطب الله بها نساءه ، وهى التى مرّت عليك

من قبل ، أقول لو تأملوا أقل التأمل ، لوجدوا أنهم أخطأوا في تصوير بشريته المطهرة صلى الله عليه وسلم وفي قياسها على بشرتنا الملوثة ، فهو بشر من حيث الجنس ، ونور من حيث النفس إذ طهره الله من الرجس ، فتزكى حسه ، وصفا ظاهره وباطنه ، فاستقام في جميع أحواله وأحيانه ، في سره وجهه ، وفي رضاه وغضبه ، وفي يسره وعسره ، وسفره وحضره ، وكيف لا يكون كذلك وقد أحاطه الله بعنايته وكلاؤه برعايته حين قال له (فإنك بأعيننا) وإذا كان الله تعالى قد قال لأخيه موسى عليه السلام : (واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) كما قال له : (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) فكيف بأمر الأنبياء والمرسلين ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه «لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»

إن اللؤلؤ أصله من بعض قطرات المطر ، يستودعها الله في الأصداف فتكسب الصفاء من باطنها بعد استقرارها مدة في بواطن البحار وذلك بقدرته سبحانه ، فهل استوى كل الماء مع اللؤلؤ الذي أصله من الماء حتى يقول هؤلاء إن النبي بشر ويتجهمون عليه عن جهل بالمقارنة بينه وبين البشر بما آتاه الله من فضل كبير .

إن المؤمن والكافر ، والمنافق والفاسق ، والصادق والكاذب ، والأمين والخائن ، والذكي والغبي ، والفصيح والعيى ، والضعيف والقوى ، كلهم من البشر من حيث أصلهم ، فهل تساوا عند الله أو عند البشر في المواهب ؟ وهل يتساوون في أولاهم وعقباهم في أى ميزان ؟ إن أزواجه صلى الله عليه وسلم من النساء ، ولكن الله خاطبهن قائلاً في سورة الأحزاب (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء . . .) وقد فارقن النساء في المسلك وإن اتفقن معهن في الجنس .

فإذا أردت أيها المسلم الصادق أن تعرف صورة رسولك عند ربك ، فاقراً إلى جانب سورة التحريم سورة الحجرات حيث يودب الله المؤمنين في معاملة

رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا
بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ
أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ *
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

ونأخذ من معنى هذه الآيات البيّنات ألا يسبق المؤمنون رسول الله صلى الله عليه
وسلم بقول أو فعل ، بل ينتظرون قوله وفعله في أمور الدنيا أو الدين ، وقد جاء
في تفسير الإمام القرطبي : إن من قدّم قوله على الرسول صلى الله عليه وسلم ،
فقد قدمه على الله تعالى ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله
عز وجل . أما رفع الصوت في حضرته ففقيه خروج على توقيره صلى الله عليه وسلم ،
ومن لم يرفع توقيره كفر من حيث لا يشعر ، لأن العمل لا يحبطه إلا الكفر والعباد
بالله . وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله : حرمة النبي صلى الله عليه
وسلم ميتاً كحرمة حيّاً ، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع
من لفظه ، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض
عنه ، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به . وكلامه صلى الله عليه وسلم
من الوحي ، وله من الحرمة مثل القرآن .

وسترى فيما بعد أن الخليفة أبا جعفر المنصور رفع صوته بجوار القبر الشريف
فنهاها إمامنا مالك وقال له : يا أمير المؤمنين . . إن الله أدّب قوماً فقال : (يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ^(١) . . .) ومدح قوماً فقال
(إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ^(٢) . . .) فأذعن أبو جعفر .

(١) سورة الحجرات آية ٢ .

(٢) سورة الحجرات آية ٣ .

أقول ، ولهذا الحرمة كان إمامنا مالك رضى الله عنه يغتسل إذا أراد أن يحدث الناس بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان يجلس على المنصة وهو يحدثهم بالحديث النبوى الشريف ، وكان رضى الله عنه لا يركب دابة فى المدينة المنورة وكان يقول فى ذلك : كيف أطأ بحافرٍ دابة أرضاً تضم جدتَ النبي صلى الله عليه وسلم ، واستفسر منه أبو جعفر المنصور : أيستقبل القبلة ويدعو أو يدعو وهو مستقبل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له إمامنا مالك رضى الله عنه : ولِمَ تصرفُ وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم . وقد حدثنى حين كنت فى المدينة المنورة السيد محمد صادق المجددى - سفير أفغان السابق بمصر - أنه كان يدعو ربه وهو مستقبل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه بعض المتزمتين وقال له استقبل القبلة ولا تستقبل وجه رسول الله ، فأجابهُ السيد المجددى إني أفقه ديني خيراً منك ، إن القبلة تستقبل فى الصلاة ، وأينما تولوا فثم وجه الله ، ولولا هذا الرسول الكريم ما عرفت القبلة .

وها أنت ذا قد رأيت فى كتاب الله الكريم أن خفض الصوت فى حضرته صلى الله عليه وسلم من سبب الأتقياء فقال تعالى (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) فكيف بنشر دعوته وسنته والدفاع عن شريعته والغيرة على مكارمه وفضائله واستحسان شأئله ، وكيف بالتأسى به قولاً وفعلاً وحالاً .

وإذا كان رفع الصوت فى حضرته صلى الله عليه وسلم موجباً للكفر والعياذ بالله فكيف بنقله فى تصرفاته والجرأة على تحسين ما استقبح أو استباح ما استحسنت ، وكيف بإنزاله إلى بشرتنا الدنية وأخلاقنا الغريزية المستهجنة بحجة أنه بشر ، ألا فليتنق الله أولئك الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . . .

أما وقد علمنا الله كيف نحفظ حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شخصه ، فلنحفظ حرمة فى بيئته ، نحفظ حرمة أهله وأزواجه وذريته وصحابته ، وما وقع من خلاف بينهم أو اختلاف لا يصرفنا عن ثناء الله عليهم وتخليدهم بفضلهم وجهادهم فى كتاب الله الكريم ، كما لا يجوز أن نغفل عن قوله تعالى :

(وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا).

ويقول الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية :

« إن قول الله منهم في الآية ليست مُبَعَّضَةً لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة مجنسة مثل قوله تعالى (فاجتنبوا الرجسَ من الأوثان) لا يقصد التبعض لكنه يذهب إلى الجنس أى فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، لأن الرجس يقع من أجناس شتى منها الزنا والربا وشرب الخمر والكذب ، فأدخل « من » يريد بها الجنس وكذا « منهم » أى من هذا الجنس يعنى جنس الصحابة ، وترى مزيد بيان في عصمته صلى الله عليه وسلم وفي فضل السادة آل البيت والسادة الصحابة في مواضع أخرى من الكتاب .

رابعاً : كان مما خوطب به عليهن الرضوان قوله تعالى : (وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً) . وهو ما يدل على عناية الله بهن في تطهيرهن وتزكيتهن بالتقوى والبعد عن المعاصي ، واعتبارهن من أهل بيته الذين لاحظتهم العناية الربانية عطاء واختصاصاً في الأزل .

ولئن قال بعض العلماء بأن قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) إنما هو منصرف خاصة إلى الإمام علي والسيدة الزهراء والسبطين الحسن والحسين رضى الله عنهم ، فإن سادتنا عطاء وعكرمة وابن عباس رضى الله عنهم قالوا هم زوجاته خاصة لا رجل معهن ، وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى (واذكرن ما يتلى في بيوتكن . . .) والذين خصصوها بالإمام علي وزوجته وابنيه احتجوا بأحاديث واردة ، وبأنه لو أريد نساؤه لقال تعالى (عنكن) و (يطهركن) ، ورد أهل العلم عليهم بأن التذكير في الآية راجع إلى لفظ الأهل ، وأيدوا ذلك بقوله تعالى لامرأة سيدنا إبراهيم عليه السلام (أتعجبين من أمر الله رحمة الله

وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

ويقول الإمام القرطبي في تفسيره :

« والذي يظهر من الآية أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم ، وإنما قال تعالى (ويظهركم) لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلياً وحسناً وحسيناً كان فيهم ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غلب المذكر ، فاقضت الآية أن الزوجات من أهل البيت لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لهن يدل عليه سياق الكلام .

أما قوله تعالى : (واذكرون ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة . . .) فيقول الإمام القرطبي إن الذكر هنا يحتمل ثلاثة معان :

١ - اذكرن موضع النعمة إذ صيركن الله في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة .

٢ - اذكرن آيات الله وأقدرن قدرها ، وفكرن فيها حتى تكون منكن على ناء ، لتتعظن بمواعظ الله تعالى .

٣ - بمعنى احفظن وقرأن فكأنه يقول : واحفظن أوامر الله وبلغن إلى الناس ما ينزل في بيوتكن وما تسمعه أو ترينه من أقوال أو أفعال رسول الله .

أقول : وهذا التفسير الأخير يدل على أنهن نائبات عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعليم الناس وتربيتهم في دين الله ، وذلك شرف ما بعده شرف ، والناظر في كتب السنة يرى أنهن رضوان الله عليهن قمن بهذا التكليف ما وسعهن الجهد ، وكان لسيدتنا عائشة في هذا المجال على الخصوص قدم راسخة كما ترى في مناقبها في غير هذا الموضوع بما هيأها الله له من استعداد كبير للحفظ والرواية والدراسة في ذكاء مشهود وورع معهود . وكيف لا يقمن بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد قال تعالى لهن : (وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا) .

خامساً : إن الله تعالى خيرهن في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُنَّ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعِكُنَّ وَأُسرِّحِكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا) . وإن كنن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات

منكن أجراً عظيماً) . واختلف العلماء في كيفية هذا التخيير على قولين :

١ - خيّرهن بين البقاء على الزوجية أو الطلاق فاخترن البقاء .

٢ - خيّرهن بين الدنيا فيفارقهن ، وبين الآخرة فيمسكهن .

ويقول الإمام القرطبي : والقول الأول أصح لقول السيدة عائشة رضي الله عنها لما سُئِلَتْ عن الرجل يُخَيَّرُ امرأته فقالت : خيّرنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أفكان طلاقاً ؟

أقول : وأيضاً ما كان التخيير على القول الأول أو الثاني ، فإنه يدل على عناية خاصة من الله بهن ، لأنه تعالى أفسح لهن ، وأعطاهن فرصة التخيير وشجعهن على البقاء في عصمته اختياراً للآخرة على الدنيا بقوله تعالى : (وإن كنن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً) فكأنه قال لهن إن الإحسان في بقائكن في عصمته مع الصبر على عيشة الكفاف التي شكوتنّ إليه منها وطالبتنّه بالتوسعة عليكن وزيادة النفقة ، وقد بلغ من عيشة الكفاف التي ارتضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبر عليها وكانت موضع شكوى منهنّ أن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : كنّا نرى الهلالِ والحلالِ والحلالِ ولا نوقد ناراً (أى لا يطبخن شيئاً) ، فقبل لها ، فكيف كنتم تأكلون ؟ قالت كنا نعيش على الأسوديينِ التمر والماء .

ويرى العلامة العقاد أن عيشة الكفاف التي بلغت ذلك الحد وصبر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يملك كل شيء في الجزيرة العربية وأمواها إنما هي برهان ساطع الدلالة على صدق نبوته ويقول رحمه الله : إن لم يكن هذا هو برهان النبوة فأى برهان يكون ؟

أقول : ولا تعجب من ذلك التقشف وقد خيّر صلوات الله وسلامه عليه بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً فاختر أن يكون نبياً عبداً ، فقد عرض عليه إسرائيليّ عند الصنّاء أن يحول له جبال مكة ذهباً بإذن الله فقاز : لا يارب ، أجوع يوماً وأشبع يوماً ، أجوع فأذكرك وأشبع فأحمدك ، فقال له جبريل عليه السلام وكان مع زميله إسرائيليّ : ثبتك الله بالقول الثابت يا محمد .

وقد روى أنه حين نزلت آيتا التخيير المذكورتان ، بدأ صلى الله عليه وسلم بالسيدة عائشة وكانت رضى الله عنها أحبهن إلى قلبه الطاهر ، فخيرها وقرأ عليها ما نزل وقال لها : إني ذاكرك أمراً ولا عليك أن تتعجلي فيه حتى تستأمرى (أى تستشيرى) أبويك ، فقالت وهى الرشيدة الموفقة : أفى هذا أستأمر أبوى ؟ إنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، فرؤى الفرح فى وجهه صلى الله عليه وسلم وكذلك جاراها سائر أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن .

سادساً : أن الله تعالى ضاعف لمن العقاب والثواب فى قوله تعالى : (يانسأء النبىؑ من يأت منكناً بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً . ومن يتقنن منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتيها أجرها مرتتين وأعدنا لها رزقاً كريماً) ويدل ذلك على منزلتهن الخاصة عند الله بما لمن من رابطة الزوجية برسوله ، فى بيوتهن ينزل الوحي بأوامر الله ونواهيه ، وفى بيوتهن يشهدن من همة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طاعة الله مالا يراه غيرهن ، فضاعف الله لمن العقاب والثواب على قدر حرمتهن ومنزلتهن الخاصة ، لأنه كلما زادت الحرمات ضعفت العقوبات ، ولذلك ضعفت حد الحر من العبد ، والثيب من البكر ، كما هو معلوم من أحكام الله .

سابعاً : إن الله تعالى جعل من زواجه صلى الله عليه وسلم بإحداهن ، وهى السيدة زينب بنت جحش ، وهى قرشية (وابنة عمته) تشريعاً للأمة المحمدية فى أمرين :

الأول : أن الكفاءة تكون بالإيمان لا بالنسب ، فهذه من صميم قریش ، وحين أراد أن يزوجها صلى الله عليه وسلم لمولاه زيد بن حارثة امتنعت وامتنع أخوها ، فانزل الله تعالى قوله الكريم : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَينًا) . فعندئذ قال أخوها لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « مرني بما شئت » فزوجها لزيد رضى الله عنه ، ويقول الإمام القرطبي : فى هذه الآية دليل بل نص فى أن الكفاءة لا تعتبر فى الأحساب ، وإنما تعتبر فى

الأديان ، وذلك أن الموالى تزوّجت في قريش ، تزوج زيد زينب بنت جحش ، وتزوج المقدادُ بن الأسود ضباعة بنت الزبير ، وزوج أبو حذيفة مولاه سالمًا من فاطمة بنت الوليد ، وتزوج بلال أختَ عبد الرحمن بن عوف .

وأذكر في هذه المناسبة أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّم « سالمًا » مولى أبي حذيفة على الصلاة بقاء فكان يؤمهم وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من قريش ، وأمّر صلى الله عليه وسلم « زيد بن حارثة » على الجيش ، كما أمر عليه ابنه « أسامة بن زيد » على الجيش ، فانظر كيف رفع الله بالإسلام الموالى وقدّمهم في الزواج وفي القيادة ، وفيهم شيوخ قريش ، فما أكرم المؤمنين بالإسلام .

الثاني : أن امرأة الابن بالتبني ليست محرمة كامرأة ابن الصلب بدليل قوله تعالى : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً وكان أمر الله مفعولاً) .

وقد لغط المستشرقون - كدأبهم في الكيد الإسلام - في زواج النبي صلى الله عليه وسلم بالسيدة زينب ، ويقطع ألسنتهم الكاذبة قوله تعالى : (زوجناكها) فولّيته في الزواج رب العالمين ، فهو لم يتزوجها لهوى في نفسه كما يقول هؤلاء السفهاء الذين تعدوا على عصمته وقالوا إنه عشق السيدة زينب ، وكيف يعشقها وهو الذي زوجّها باختياره لمولاه زيد بن حارثة فلم تكن جديدة عليه ، وقد زوجّه منها رب العالمين للحكمة الواردة في الآية ، وتلك الحكمة هي : (لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً وكان أمر الله مفعولاً) وهي حكمة تشريعية ، فإنهم كانوا يظنون أن الابن بالتبني تحرم زوجته على من تبناه كما تحرم زوجة الابن من الصلب على أبيه ، ولو صح ما يفترونه حقدًا وحسدًا من أنه عشقها وتمنى أن يطلقها زيد ليتزوجها من بعده لما قال له : (أمسك عليك زوجك واتق الله) ، ولقال له : طلقها في الفرصة المواتية له حين شكها زيد إليه صلى الله عليه وسلم أما قوله تعالى : (وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ، فإنه صلى الله عليه وسلم علّم من ربه أنها ، رضى الله عنها ، ستكون زوجة له ، ومع ذلك قال لزيد حين شكها من دلالها عليه (أمسك عليك زوجك واتق الله) وللرسول صلى الله عليه وسلم عذره الشرعى في ذلك كما سيأتى بعد قليل .

أقول : ولو كان الذى فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمره بإمساكها يعد خطيئة لأمره الله تعالى بالتوبة والاستغفار منه ولكن لم يقع ذلك . فليتق الله أولئك المتخرسون والجاهلون بحرمته وعصمته صلى الله عليه وسلم . ولأن الله تعالى زوجها لنيبه صلى الله عليه وسلم فقد دخل عليها صلى الله عليه وسلم بغير إذن ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق ، وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلم التى لا يشاركه فيها أحد بإجماع المسلمين ، ولهذا كانت رضى الله عنها تفتخر ضرائرها وتقول لمن : زوّجكن آباؤكن وزوّجنى الله تعالى . وقد استدل العلماء على ثبوت البولي في الزواج بقوله تعالى : (زوجناكها) .

وإذا أردت أن تعرف مدى الثقة التى حظى بها «زيد» عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومدى التقوى التى تحلّت بها سيدتنا زينب رضى الله عنها ، فهناك ما حدثنا به الإمام مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال :

« لما انقضت عدّة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد : « فاذكرها على » . قال فانطلق زيد حتى أتاها وهى تُخمّر عجبينها ، قال فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي ، فقلت يا زينب : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر (أى أستخير) ربي ، فقامت إلى مسجدنا ونزل القرآن . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن . وكانت رضى الله عنها تقول لمولاتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدلّ بهن : إن جدى وجدك واحد ، والله أنكحك إياى من السماء ، وإن السفير فى ذلك جبريل .

وقال العلماء إنها رضى الله عنها لما وكّلت أمرها لله وصدقت فى تفويضها له سبحانه تولى زواجها ولذلك قال : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) ، وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وسلم (زوجتكمكها) أقول : وقد أظهر زيد رضى الله عنه فى نشأته^(١) من الوفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما جعله أهلاً لثقتة الغالية فيه . فقد روى أن عم زيد أقيه يوماً وكان قد ورد مكة فى شغل له . فقال : ما اسمك يا غلام ؟ قال زيد ، قال ابن من ؟ قال :

(١) وكانت السيدة خديجة اشتريته وأهدته لرسول الله ، صل الله عليه وسلم .

ابن حارثة . قال : ابن من ؟ قال : ابن شراحيل الكلبي . قال : فما اسم أمك ؟ قال : سعدى وكنت في أحوالى طى ، فضمه إلى صدره وأرسل إلى أخيه وقومه فحضرُوا وأرادوا منه أن يقيم معهم . فقالوا : لمن أنت ؟ قال : لمحمد بن عبد الله . فَأَتَوْهُ صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله تَتَمَكُونُ العاني وتُطْعَمُونَ الأسير . جئناك في ولدنا زيد عبدك فامسُنْ علينا وأحسن في فدائه .

قال : وما ذلك ؟ قالوا : زيد بن حارثة نريد شراءه .

قال : أو غير ذلك ، ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء . وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء .

قالوا : لقد زدتنا على النَّصَف (أى أنصفتنا فوق ما نتصور) .

فبعث صلى الله عليه وسلم إلى زيد وقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم . هذا أبى ، وهذا أخى ، وهذا عمى . فقال صلى الله عليه وسلم : فأى صاحب كنت لك ؟ فبكى وقال : لِمَ سَأَلْتَنِي عن ذلك ؟ قال : أَخْبِيرُكَ فإن أحببت أن تلحق بهم فالحق . وإن أردت أن تُقيم فأنا من قد عَرَفْت . فقال : ما أختار عليك أحداً . فجذبه عمه وقال : يا زيد اخترت العبودية على أبيك وعمك . فقال : أى والله العبودية عند محمد أحبُّ إلىَّ من أن أكون عندكم .

فلما آثر زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبيه وقومه ، ذهب صلى الله عليه وسلم إلى قريش بالمسجد فقال : اشيدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني . وبهذا تبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يدعى « زيد بن محمد » حتى جاء الإسلام ونزل قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . . .) فرجع زيد إلى اسم أبيه حارثة .

وقد بادله رسول الله صلى الله عليه وسلم حُبباً بحبه حتى كان يقول له : « يا زيد أنت مولاي ومنى وإلىَّ وأحب الناس إلىَّ » . وكافأه تعالى على فرط حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره سبحانه في القرآن المجيد باسمه ، فصار اسم زيد قرآناً يتلوه أهل الدنيا في المحاريب وأهل الجنة كذلك أبداً . كما يتلوه السفارة

الكرام البررة من أهل السموات العلى .

وقد قلت في محاضرتي « رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم » -
التي ألقيتها بنادى التجارة في ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٨١ (٧ ديسمبر ١٩٦١) :

« وليس من خلق النبي صلى الله عليه وسلم اعتداء على حرمة مؤمن
ولامؤمنة ، ولو كان كما يقولون مال إليها بقلبه وتمنى أن يطلقها زيد ليتزوجها لما
نسب الله إليه الإناعام على زيد في قوله تعالى : (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ
اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ . . .) فقد أنعم حبيبنا المصطفى صلى الله عليه
وسلم على مولاه زيد بنعم كثيرة ، فقد أعتقه وتبناه وأحبه وزوجه ابنة عمته القرشية
ليرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإسلام خسيصة العبودية ويكسر عصبية
الجاهلية . وما زال سيدنا زيد كل هذا الإكرام إلا ببركة النبي صلى الله عليه وسلم
حين آثره زيد على أبيه وأهله ، وهذا هو الإيمان بعينه ، ألا ترى أنه صلى الله عليه
وسلم قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه » والنفس
للإنسان أقرب إليه من الأهل والعشيرة .

وقوله تعالى : (وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ
أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) ، إنما هي كما أفهم تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم
وليسست عتاباً ، ولي على ذلك الفهم دليلان :

١ - أنه تعالى استطرد فقال : (فاما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) ،
فالله هو الذى زوجه إياها ولم يتزوجها بنفسه صلى الله عليه وسلم ، وحكمة هذا
الزواج تشريعية وهى التى بيّنها سبحانه فى قوله الكريم : (لكى لا يكون على المؤمنين
حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهم وطراً) وقد كانوا يظنون أن الابن بالتبني
تحرم زوجته على من تبناه كما تحرم زوجة الابن من الصلب على أبيه كما أسلفنا .

٢ - أنه تعالى قال : (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ
لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ

يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا).

وهذه الآية الكريمة أشارت إلى ما كان يخفيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرج في أن يقول الناس إنه تزوج امرأة زيد وهو ابنه بالتبني ، فأزال الله عنه هذا الحرج الذي أخفاه في نفسه بقوله تعالى : (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) وكان الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : لماذا تتحرج من الزواج بمطلقة ابنك بالتبني وتحسب حساباً لما يقوله الناس مع أن ربك زوجك بإياها للحكمة التشريعية وهي إحلال الحلال بالزواج من امرأة الابن بالتبني ، خلافاً لما يظنه قومك من أنها محرّم كما محرّم امرأة الابن من الصلب ، ولا مآثم في الطيبات ، إنما المآثم في الخبائث ، وأنت من المرسلين الذين يبلغون رسالات ربهم ويخشونه ولا يخشون أحداً سواه .

والذي أخفاه في نفسه صلى الله عليه وسلم وأشار إليه قوله تعالى : (وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . . .) هو أن الله تعالى أعلمه بزواجها منه بعد أن يطلقها زيد ، فلما جاءه زيد يشكو إليه شدتها وأنها لا تطيعه ورجب إليه في أن يطلقها قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمسك عليك زوجك واتق الله » يريد بذلك ألاّ يذمها في خلقها وألا يطلقها. فإن قيل لماذا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بإمسакها مع علمه بأنها ستطلق ، فالرد على ذلك أنه من القواعد الأصولية المقررة في الشرع أن الحاكم لا يحكم بعلمه ، وقد روى عن أبي بكر رضي الله عنه قال : لو رأيت رجلاً على حدٍّ من حدود الله ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيره. وروى أن امرأة جاءت إلى عمر رضي الله عنه فقالت له : احكم لي على فلان بكذا فإنك تعلم ما لي عنده فقال لها : إن أردت أن أشهد لك فنعيم ، وأما الحكم فلا . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بيمين وشاهد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اشترى فرساً فجحده البائع فلم يحكم عليه بعلمه وقال : من يشهد لي ، فقام خزيمه فشهد فحكم ، خرّج الحديث أبو داود وغيره .

وأقول بعد ذلك فلو قال له النبي صلى الله عليه وسلم : طلقها ، لكان قد

حكّم بطلاقها بما علم من الله ، وليس في أمره بإمساكها مأثم ، ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان مع علمه بأنه لا يؤمن .

هذا وقد قرأت أخيراً في حاشية المغفور له الشيخ الباجوري على الجوهرة ما يؤيد وجهة نظري الدافعة لقولهم إنه صلى الله عليه وسلم رأى زينب فأعجب بها وقال : سبحان مقلب القلوب ، فقد قال الشيخ رحمه الله في الحاشية ما نصه :

«وما قيل من أنه صلى الله عليه وسلم تعلق قلبه بها وأخفاه فلا يلتفت إليه وإن جَلَّ ناقلوه ، فإن أدنى الأولياء لا يصدر عنه مثل هذا الأمر ، فما بالك به صلى الله عليه وسلم . أرأيت إلى قول الشيخ رحمه الله « فلا يلتفت إليه وإن جَلَّ ناقلوه » وكيف أنه نظر في المسألة بعين العصمة التي تحلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يأخذ بالنصوص التي تناقض العصمة وإن علا سندها . وصدق إمامنا على بن أبي طالب في جوابه حين سأله الحارث الليثي : أنتظن أن طلحة والزبير كانا على ضلال ؟ فقال الإمام كرم الله وجهه : يا حار (أى يا حارث على الترخيم) إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يعرف بالرجال فاعرف الحق تعرف أهله .

أقول وأرجو بعد أن أطلت الكلام في هذه المسألة أن يرى القارئ فيما ذكرته وفيما أرشدت إليه الشرف الذي حلى به الله رسوله صلى الله عليه وسلم في قصة زواجه بالسيدة زينب في أول القصة وآخرها ، حيث كانت البداية أن نهى الله أهلها القرشيين عن عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم في تزويجها لزيد لكسر عصبته الجاهلية ورفع أخوة الإسلام بقوله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) ، وكانت النهاية أن تولى الله جل جلاله تزويجها بعد طلاقها لرسوله صلى الله عليه وسلم ليُحِلَّ حلالاً ظنوه أنه حرام ، وقالوا تزوج محمد امرأة ابنه ، فأجابهم تعالى بقوله : (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليمًا) وبقوله تعالى :

(مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيهَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَأَازَ أَمْرَ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) . فإن تجلى ذلك الشرف للقارئ في

حلاه وعلاه بالحقائق التي بينهاها عن أول القصة ومنهاها فليقل للمتحرّصين من المستشرقين أو غيرهم من الجاهلين : موتوا بغیظكم إن الله عليم بذات الصدور .

ثامناً : إن الله تعالى رضى عن موقفهن في اختيار الله ورسوله والدار الآخرة حين خيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلامة رضاه عنهن هو قوله سبحانه : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَاقِبًا) . ولا تنفى دلالة الآية على الرضا قول بعض العلماء إنها منسوخة بالسنة وإن النامخ لها حديث السيدة عائشة قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له النساء ، وروى الطحاوى عن أم سلمة قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء من شاء إلا ذات محرم وذلك قوله عز وجل : (تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) . وهو كذلك قول الإمام على وابن عباس وعلى بن الحسين والضحاك .

تاسعاً : إن الله تعالى أكرمهن ودفع عنهن الهم والحزن ووفر لهن السرور والرضا فقال تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا) . ومع هذا التفويض الواسع الذي أباح له ترك القسّم ولم يوجهه عليه ، راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسّم بينهن بالعدل ولم يرجح بعضهن على بعض مع أنه تعالى فوّض له في ذلك ، فظهر لسنائه فضله عليهن في القسّم بالسوية بينهن ، ولو كان صلى

الله عليه وسلم استعمل التفويض المعطى له ما تضررت منه واحدة منهم، لأنه كان يستند إلى حكم الله الفعال لما يشاء، ولا يفوتهن النزول على حكم الله تعالى والرضا به وقد قال لهن سبحانه: (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً).

عاشراً: أن الله تعالى فرض الحجاب بين نسائه صلى الله عليه وسلم وبين المؤمنين على الرغم من أنه تعالى جعلهن أمهات للمؤمنين، وحرم عليهم ذواجهن من بعده صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك مزيد توقيه لهن وتأديب للمؤمنين والمؤمنات في التربية الاجتماعية، لأنه إذا لم يأذن الله تعالى في مخالطة أظهر النساء وأتقاهن وأزكاهن، فكيف يخالط المؤمنون غيرهن كما يقع جهلاً بأحكام الله، أو استهانة بحدود الله، وقرأ بعد ذلك قول الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ^(١)) وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذُلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَائِهِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُوجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا . ومن ذلك ترى أن الدخول بدون إذن حرام، وجائز من أجل الطعام بإذن، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي صلى الله عليه وسلم فيدخلون قبل أن يدرك (ينضج) الطعام فيقعدون إلى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون . وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها وجماعة :

(١) أى منتظرين أن ينضج الطعام، وكان بعض المؤمنين يبكرون وينتظرون طبخ الطعام ونضجه، وكذلك كانوا إذا فرغوا من الأكل جلسوا يتحدثون في بيته صلى الله عليه وسلم ففهم الله عن ذلك ودخل في النهي سائر المؤمنين .

سببها أن عمر قال : قلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البسر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجن فنزلت الآية . ومعنى المتاع في الآية ما يطلبه المؤمنون في منافعهم من الأواني المنزلية أو من فتوى شرعية ، وفي آية الحجاب دليل على أن المرأة كلها عورة ، بدنها وصوتها واستثنوا الوجه والكفين عند الضرورة لأن الغالب ظهورهما عادة وعبادة في الصلاة والحج^(١) كما أن في الحجاب دليلاً على أنه لا ينبغي لأحد من المؤمنين أن يثق بنفسه في الخلوة بمن لا تحل له ، فجانبه الخلوة أحسن لنفسه وأطهر لقلبه ، وليس أرفع في التربية من أدب الله تعالى الذي أدب به عباده المؤمنين والمؤمنات .

وقد قال إمامنا الشافعي رضي الله عنه : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتي مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن ، ومن استحل ذلك كان كافراً لقوله تعالى في سورة الأحزاب : (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) ،

وقيل إنما منع الله الزوج بأزواجه صلى الله عليه وسلم لأنهن أزواجه في الجنة ، والمرأة في الجنة لآخر أزواجها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « زوجاتي في الدنيا هنَّ زوجاتي في الآخرة » وقال صلى الله عليه وسلم : « كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي فإنه باقٍ إلى يوم القيامة » وهذا الحديث الأخير هو الذي حرص من أجله أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن يتزوج بالسيدة أم كلثوم (زينب الوسطى) بنت الإمام علي ، ولما تزوجها خرج إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : ألا تهنتوني ؟ قالوا : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال تزوجت من أم كلثوم بنت علي فصار لي نسب برسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحادي عشر : إن الله تعالى قصر بعد الحجاب رؤيتهن على المحارم فقال تعالى : (لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ)

(١) وأما عورة الرجل فن السرة إلى الركبة .

وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) . حيث ظن الآباء والأبناء والأقارب أن آية الحجاب عامة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت الآية مستثنية المحارم ، ولم يذكر الله العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين في العرف .

الثاني عشر : وإلى جانب المحارم التي ذكرها الله تعالى في الآية السابقة الخاصة بأزواجه صلى الله عليه وسلم بين الله سبحانه في سورة النور بقية المحارم وبقية من أبيع لسائر المؤمنات مقابلتهم فقال تعالى : (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ^(١) أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ^(٢) مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها تقول : رحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما نزل (وليضربن بخمرهن^(٣) على جيوبهن) شققن أزُرهن فاخترن بها . وقد دخلت عليها حفصة بنت أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهم وقد اختمرت بشيء يشف عن عنقها وما هنالك ، فشقته عليها وقالت : إنما يُضرب بالكثيف الذى يستر، ومعنى قوله تعالى : (على جيوبهن) أى على صدورهن لأنها كانت مواضع الجيوب فى ثياب السلف رضوان الله عليهم .

(١) البعل هو الزوج والسيد .

(٢) أى الذين لا حاجة لهم بالنساء ، والإربة الحاجة والجمع مأرب .

(٣) الخمر جمع الخمار وهو ما تغطى به رأسها (الطرحة) .

وجاء في تفسير الإمام القرطبي : ذكر القاضي إسماعيل عن الحسن والحسين رضي الله عنهما أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن رؤيتهما لمن تحل ، قال إسماعيل : أحسب أن الحسن والحسين ذهبا في ذلك إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا في الآية التي في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعالى في سورة الأحزاب (لا جناح عليهن في آباتهن إلخ) وذهب ابن عباس إلى آية النور السابقة حيث قال تعالى : (أو أبناء بعولتهن) ، فانظر رعاك الله إلى أي مدى ذهب السبطان في توقيف أزواجه صلى الله عليه وسلم تمسكاً بآية الأحزاب الخاصة بهن والتي لم يرد فيها أبناء بعولتهن :

الثالث عشر : أراد الله سبحانه أن يزيد سيداتنا أمهات المؤمنين سترًا وتوقيرًا فأنزل قوله تعالى : (يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ قُلُوبَ لَأُزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) والجلباب هو ثوب أكبر من الخمار ويستر جميع البدن . وفي صحيح مسلم عن أم عطية قلت : يا رسول الله ، إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال : لتلبسها أختها من جلبابها . وإرخاء الثوب أن تلويه وتغطي به الصدر ومعظم الوجه .

وسياق الآية الشريفة السابقة يُرينا كيف خصَّ الله بالذكر أزواجه وبناته صلى الله عليه وسلم قبل عامة نساء المؤمنين ، وفي ذلك توقيف لا يخفى على ذوى الأفهام . وقد دخلت نسوة من بنى تميم على السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، وعليهن ثياب رفاق فقالت لمن : إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا لمنع النساء من الخروج إلى المساجد كما منعت نساء بنى إسرائيل ، تريد بذلك أن تقول إن الزمن تطور والأخلاق تغيرت عما كانت عليه أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت رضي الله عنها تتمثل بقول لبيد الشاعر :

ذهب الذين يعاش في أكثافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر

ثم تقول رضي الله عنها : كيف لو عاش لبيد إلى زماننا ؟

وكان عبد الله بن الزبير يقول « رحم الله أم المؤمنين حين كانت تتمثل بقول
ليد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر
ثم يُضيف رحمه الله قائلا : كيف لو عاشت أم المؤمنين إلى زماننا ؟ وقد
قلت حين قرأت قولها : فإذا نقول نحن اليوم ؟ اللهم أرنا الحق حقاً فنتبعه
والباطل باطلا فنجتبه .

ويقول الإمام القرطبي في تفسيره (الذي كتبه في القرون الوسطى) : وقد قيل
إنه يجب السر والتقنع الآن في حق الجميع من الحرائر والإماء ، وهذا كما أن
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا النساء المساجد بعد وفاة رسول الله
صلى الله عليه وسلم . أقول وكان القناع في الزمن الأول مقصوراً على الحرائر
دون الإماء حين كان الرجال والنساء على تقوى من الله . فلضعف التقوى أرادوا
التحرز بتقنع الحرائر والإماء درءاً للمفاسد .

الرابع عشر : أن الله تعالى جعلهن محل عنايته في الصلاة ، فقال
تعالى في سورة طه : (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا
نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) ، وجاء في تفسير الإمام ابن كثير أن النبي
صلى الله عليه وسلم كان إذا أصابه خصاصة (حاجة) نادى أهله : « يا أهله
صلوا صلوا » وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة ، وأضاف ابن كثير
رضي الله عنه أن الإمام الترمذى وابن ماجه روى من حديث عمران بن زائدة عن
أبي خالد الوالبي عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول
الله يا ابن آدم تفرغ لعبادتي مملأً صدرك غنى وأسد ففرك ، وإن لم تفعل
ملائت صدرك شغلا ولم أسد ففرك » وأخرج أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة
رضي الله عنهما قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله رجلا قام من
الليل فصلّى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح في وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت
من الليل فصلّت وأيقظت زوجها فإن أبت نضحت في وجهه الماء » .
وقد قال بعض المفسرين إن قوله تعالى (وأمر أهلك) تشمل أهل بيته

وأمرته واستدلوا بقوله تعالى في حق سيدنا إسماعيل عليه السلام: (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) ولكن الخصوصية واضحة في أزواجه صلى الله عليه وسلم فقد عبرت عنهن بالأهل في سورة آل عمران حيث قال تعالى : (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) ، وواضح فيها أنه خرج من بيته حيث يسكن أهله أى أزواجه رضوان الله عليهن ، وهذا التفسير لا ينافي أن الصلاة فريضة على جميع المؤمنين والمؤمنات بنصوص أخرى :

الفضل الثالث

أم المؤمنين عائشة

قصة الإفك

بمناسبة حديث الإفك يتعرض العلامة عباس العقاد إلى عظم خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابه «عبقرية محمد» فيقول رحمه الله :
« والمعاملة الطيبة في الزمن الطويل خلق نادر بين الناس ، ولكنه في حالة الرضا خلق لا يشق فهمه على كثيرين ،

« إلا أن الخلق الذي يشق فهمه على الأكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسه من خطر وهو المساس بالوفاء ، في هذه الخصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى ، فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيّب ولا أكرم من المعاملة التي أثّرت عن النبي صلى الله عليه وسلم في قصة عائشة بنت الصديق وهي أحظى نسائه لديه ، ولنخصها مما روته بلسانها إذ تقول رضی الله عنها :

« . . . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيهما خرج سهمها أخرج بها رسول الله معه ، وأقرع بيننا في غزوة (وهي غزوة بنى المصطلق) فخرج فيها سهمي ، ثم قفلنا من الغزوة إلى أن دنونا من المدينة ، فقممت حين آذنا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأني ، وأقبلت إلى الرجل فلمست صدرى فإذا عقدى قد انقطع ، فرجعت ألتمسه فحبسني ابتغاؤه . . . وأقبل إلى الرهط الذين كانوا (١) يرحلون لي ، فحملوا هوْدَجِي وهم يحسبون أني فيه . وكان النساء إذ ذاك خيفاً لم يهبلن (٢) ولم يعشهن اللحم ، إنما يأكلن العَلَقَ (٣) من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج

(١) أي يحملون الرجل على البعير .

(٢) يشقلهن اللحم والشحم .

(٣) بضم ففتح ، وهي ما يه بلغة من الطعام إلى وقت النداء .

حين رحلوه ورفعوه إذ كنت مع ذلك جارية حديثة السن .

« ووجدت عقدي فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مُجيب ،
فتممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلى .

« فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فتمت ، وكان صفوان ^(١) بن المعطل
السلمي قد عرس من وراء الجيش فأدلج ^(٢) فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد
إنسان نائم ، فعرفني حين رأي واسترجع ، فاستيقظت وخرمت وجوي بجلبائي ،
والله ما يكلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته
وركبته وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا في نحر الظهر ^(٣) .

« فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولى كِبْرَه ^(٤) عبد الله بن أبي
ابن سلول ،

« واشتكت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يُفِيضُونَ في قول أهل الإفك
ولا أشعر بشيء من ذلك .

« ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله اللطاف الذي كنت أرى
منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك
يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نتهقت ، وخرجتُ معي أم مسطح
قبل المناصع ^(٥) .

« ثم عدنا فعثرت أم مسطح في مِرْطَها ^(٦) فقالت تَعْرِسِ مسطح .

« قلتُ : بشس ما قلت . أتسبين رجلاً شهيداً بداراً ؟

« قالت : أي هنتاه ^(٧) ، أو لم تسمعي ما قال ؟

(١) وقد جاء فيما رواه بسنده الإمام الطبري أن السيدة عائشة كانت تقول : لقد سئل عن
صفوان فوجدوه رجلاً حصوراً ما يأتي النساء وقتل شهيداً رضى الله عنه .

(٢) مسا آخر الليل .

(٣) أي في شدة الحر .

(٤) الكبر بالضم والكسر ، الإثم .

(٥) أماكن في الخلاء يقضى فيها الناس حاجتهم إذ كان العرب يكرهون اتخاذ الكنف في
بيوتهم ويستقدرونها بخلاف العجم فإنهم كانوا يتخذونها في بيوتهم .

(٦) أي الكساء .

(٧) تنى عليها طبيعتها وعدم معرفتها بما كان منه في حقها .

« قلتُ : وماذا قال ؟ »

« فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً إلى مرضى ، فلما رجعتُ إلى بيتى دخل على رسول الله فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟ واستأذنتُ أن آتى أبوى أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لى . »

« قالت أمى : يا بنية هوئنى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئته عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها . »

« قلت : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيئ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . »

« ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وأسامة بن زيد يستشيرهما فى فراق أهله ، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذى يعلم من براة أهله وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود ، وقال لرسول الله : هم أهلك ولا تعلم إلا خيراً . »

« وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيئ الله عليك ، والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك . »

« فدعا رسول الله "بسريرة" يسألها : هل رأيت من شىء يريبك من عائشة ، قالت : والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قد أغمضه (١) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن (٢) فتأكله . »

وبكيئ يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالتق كبدى . »

« فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد ثم قال : أما بعد يا عائشة ، فإننى قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه . »

(١) أى أعيبه .

(٢) الحيوان الذى يألف البيت كالغنم والدجاج .

« فلما قضى رسول الله مقالته قلص^(١) دمعى حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ، فقال : والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله .
« فقلت لأمى : أجبى عنى ، فقالت كذلك ، والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله .

قلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن : إني والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به ، فإن قلت لكم : إني بريئة ، والله يعلم أنى بريئة ، لا تصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أنى بريئة ، لتصدقونى ، وإنى والله لا أجد لى ولك مثلاً إلا كما قال أبو يوسف^(٢) :
(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) .

« ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، فو الله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان^(٣) فى اليوم الشاتى .
« فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال :
أبشرى يا عائشة ، أما الله فقد برأك .

« قالت لى أمى : قوى إليه .

« قلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ، هو الذى أنزل براءتى .

وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقربته منه وفقره ، فأقسم لا ينفق عليه شيئاً أبداً ، فأنزل الله عز وجل : (وَلَا يَأْتَلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(١) قلص وتقلص ارتفع وانزوى وجف .

(٢) قالت رضى الله عنها فيما رواه الطبرى : التمت اسم يعقوب فا أذكره وهو مايدل على مدى تأثيرها بما شاع كذباً عنها ، شأن كل حرة كريمة عفيفة .

(٣) أى الدر .

فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ورجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه .

المنافقون والإفك :

والذى أشاع الفاحشة ونشرها حِمْدًا وحسداً على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول لعنه الله فى الدنيا والآخرة ، وهو الذى رأى صفوان (١) آخذاً بزمام الناقة التى ركبها أم المؤمنين فقال إفكاً وبهتاناً : والله ما نَجَسَتْ منه ولا نجا منها .

وروى الإمام الطبرى بسنده عن ابن إسحق عن بعض رجال من بنى النجار : أن أبا أيوب الأنصارى رضى الله عنه قالت له امرأته : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة ؟ قال بلى وذلك الكذب ، أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله . قال فعائشة والله خير منك .

فانظر الفرق الشاسع بين مسلك المنافق عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين الذى تولى إشاعة الفاحشة عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مسلك الصحابى الأنصارى الخزرجى أبى أيوب رضى الله عنه وعن سائر الصحابة المكرمين :

القرآن الكريم والبراءة :

وما أروع كلامها رضى الله عنها فى التحدث بنعمة الله التى جاءت بها من السماء فى براءتها حين قالت فيما رواه الطبرى فى تاريخه :

« وايم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأناً من أن ينزل الله عز وجل فى قرآننا يُقرأ به فى المساجد ويصلى به ، ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه شيئاً يكذبُ الله به عنى لما يعلم من براءتى أو يُخَبِّرُ خبراً . فأما قرآن ينزل فى ، فوالله لمنفى كانت أحقر عندى من ذلك » .

(١) كان صفوان رضى الله عنه من خيار الصحابة الكرام ، وكان صاحب رسول الله صلى الله

عليه وسلم فى غزواته .

سورة النور والبراءة :

وما أبدع ما قاله الله تعالى في سورة النور في تبرئتها مما لا كنه الألسن زوراً وبهتاناً في قصة الإفك (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ) .

وقد تُؤثر الإشاعة الكاذبة في بعض المؤمنين لانه تعالى يقول : (وفيكم سَمَاعُونَ لَهُمْ) وإذا شك أحد المؤمنين في مسلك الزوجة الأثيرة ، فإنه يؤذى نفسه ويؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث لا يشعر ، لأنَّ عرضه الشريف مرتبط بعرض نساءه الطاهرات ، ولذلك أنب الله المؤمنين الذين تأثروا بالإشاعة وأسهموا فيها ،

فقال تعالى في سورة النور : (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ

أَنْ تَشِيَعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْ لَا فَضَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ وَأَنَّ اللَّهَ رُءُوفٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ مَا زَكَّىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّيٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُؤْفِقُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ * الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

براءة صفوان وكرامة أم المؤمنين :

وفي قوله تعالى: (أولئك مبرأون مما يقولون) شمول لبراءة السيدة أم المؤمنين و صفوان . ويقول الإمام القرطبي في تفسيره : قال بعض أهل التحقيق : إن يوسف عليه السلام لما رمي بالفاحشة برأه الله على لسان صبي في المهدي . وإن مريم لما رميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى عليه السلام . وإن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن . فما رضى لها ببراءة صبي ولا نبي حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان . وهذا الذي يقول به أهل التحقيق يدلنا على المكانة السامية التي لأُم المؤمنين عند الله تعالى . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

إقامة الحد :

وقد روى أبو داود عن السيدة عائشة رضی الله عنها قالت : لما نزل عُذْرِي قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم ، وسماهم : حَسَّان بن ثابت ومُسَطَّح بن أثانة وحسنة بنت جحش ، وفي كتاب الطحاوي : ثمانين ثمانين . والحد الذي أقيم على هؤلاء المسلمين يُظهر كَذِبَ القاذف وبراءةَ المقدوفة كما قال تعالى : (لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) . وكذلك يكفّر الحدُّ عن المحدودين ما صدر عنهم من القَذْفِ رجماً بالغيب حتى لا يبقى عليهم تبعة منه يوم القيامة لأنه صلى الله عليه وسلم قال في الحدود : «إنها كفارة لمن أقيمت عليه» .

جزاء السب :

وقد روى الإمام القرطبي عن هشام بن عمار قال : سمعت مالكا يقول : من سب أبا بكر وعمر أدب ، ومن سب عائشة قُتِلَ لأن الله تعالى يقول : (يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُوذُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فمن سب عائشة فقد خالف القرآن ، ويؤيد الإمام القرطبي رأى الإمام مالك فيقول : إِنَّ أَهْلَ الْإِفْكِ رَمَوْا عَائِشَةَ الْمَطْهَرَةَ بِالْفَاحِشَةِ فَبَرَّأَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، فكل من سبها بما برَّأها الله منه مكذبٌ لله ، ومن كذب الله فهو كافر .

تعقيب العلامة العقاد :

ويقول العلامة العقاد في تعقبه على القصة :

« تلك هي القصة التي عرفت بقصة الإفك كما روتها لنا السيدة عائشة رضى الله عنها ، وهي مسبار^(١) صادق يسبر لنا أغوار المرودة والرفق في معاملة النبي لزوجاته حيث لارفق ولا مرودة عند الأكثرين ، فليس النبي هنا في حالة من حالات الرضا التي تسلس الطباع ولا تستغرب معها المودة وطول الأناة ، ولكنه في حالة من تلك الحالات التي تثير الحمية وتثير الحب وتثير النعمة وتثير في النفس

البشرية كل ساكنة تدعو إلى طيب المعاملة ، فلم يكن في هذه الحالة إلا كرمًا خالصاً بما سلك في أمر نفسه وفي أمر أهله وفي أمر دينه ، ولم يدع للحلم من حالمى الحضارة الحديثة مُرتقى يتطلع إليه في جميع هذه الغايات .

« سمع النبي حديثاً يلاك بين المنافقين ويسرى إلى المسلمين . . . »

« سمع النبي ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير بينة ولم يرفضه بغير بينة ، وكان عليه أن يعود زوجه المريضة أو يجفوها إلى حين ، فعادها وبه من الرفق والإنصاف ما يأبى عليه أن يفتحها في مرضها بما يخامر نفسه الكريمة . »

طهارة جميع الأزواج :

والآيات الكريمة التي نزلت في قصة الإفك الخاص بالسيدة عائشة تمتد إلى سائر أزواجه الطاهرات لأن الله تعالى يقول : (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) . وقد قال ابن عباس والضحاك وغيرهما هي في السيدة عائشة وسائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

أقول : وهذه بركة من بركات أمنا السيدة عائشة على زميلاتها أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن . وفي ذلك أيضاً من التكريم لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ، وإذا كان الله تعالى قد أنزل سيداتنا أمهات المؤمنين منازل الكرامة والحرمة ، فلا يليق بمؤمن أن يطلق لسانه فيهنّ بالنقد جهلاً بجرمتهن تحت ستار بحث علمي أو تاريخي أو تشيع للإمام على حتى لا يتعرض للعنة الله في الدنيا ، ثم للعذاب العظيم في الآخرة . وسترى بعد قليل أن الإمام قد حفظ للسيدة أم المؤمنين عائشة حرمتها وصان لها كرامتها وردّها إلى المدينة معزة مكرمة ، كما سترها داعية له بالحنّة حين كشفت النساء المصاحبات لها عن وجوههن .

والأولياء ليسوا معصومين عصمة الأنبياء ، ولكنهم محفوظون بحفظ الله للأتقياء ، ومن هنا كانت نفوسهم لوامة ورجاعة إلى الحق : فلا تأخذهم العزة بالخطأ . وإن وقع منهم عن تأويل واجتهاد في الرأي ، ولا تكمن في قلوبهم ضميعة عن سبب

قام ومضى لحاله . ولهذا لامت أم المؤمنين نفسها في موقفها من معركة الجمل ووددت أن لو كانت ماتت قبلها بعشرين عاماً : كما لامت ابن عمر رضى الله عنهما على أنه لم يمنعها من الخروج للعراق . وإذا كانت قد رجعت على نفسها باللوم والندم فقد حكمت على موقفها وأعفت غيرها من الحكم لها أو عليها . وكان أمر الله تدرأً مقدوراً .

ولا تنس أنه تعالى كان كشف الغيب لنبيه صلى الله عليه وسلم حين قال لنسائه : أيتكن صاحبة الجمل الأحدث تَبْحُها كلابُ الحوَابُ ، ثم نظر إلى السيدة عائشة وقال : أخشى أن تكونيها يا حُمَيْراءُ ، وقد همت بالرجوع من الطريق حين نبحتها كلابُ الحوَابُ وتذكرت هذا الحديث الشريف إلا أنهم خدعوها بشهادة زور بأنهم خَلَفُوا الحوَابُ وراءهم وكانت تلك أول شهادة زور في الإسلام .

السيدة عائشة ومعركة الجمل :

كان خروج السيدة عائشة رضى الله عنها إلى العراق للإصلاح بين الطائفتين باعتبارها أم المؤمنين جميعاً ، ولأنه تعالى يقول حاضاً على الإصلاح بين المتخاصمين : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) . ولكن شاء الله أن يقع القتال الميرير في معركة الجمل بين الفريقين على غير ما أرادوا جميعاً . وغلب المقدر على تقديرهم ، فندمت أم المؤمنين على خروجها إلى البصرة أشد الندم وقالت في نَدَمِها : « ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين عاماً » . ولأن بعض الكتاب ربطوا بين قصة الإفك وبين موقف أم المؤمنين من الإمام علي ؛ نقول :

« ذكر الثعلبي وغيره أنها رضى الله عنها كانت إذا قرأت قوله تعالى (وَوَرَّانُ فِي بِيوتكن) تبكى حتى تبل خمارها . ولا تعجب أن يكون منها ذلك وهي الصديقة بنت الصديق التي نزلت براءتها في كتاب الله الكريم وصارت متلوة في المحاريب على السنة الصفوة الأبرار من عباد الله المتقين .

حملة الجمل والمشاركة في الحكم :

ويرى العلامة العقاد في كتابه « الصديقة بنت الصديق » أن حملة الجمل إنما كان المقصود منها مشاركة الإمام في الحكم ؛ فيقول :

« ويبدو لنا من جملة الوقائع أن حملة الجمل كانت حملة اندفاع ، ولم تكن حملة تديير وتقدير ، ولا كان أحد من دعائها يملك زمامها ويتجه به إلى مصير معروف ، وإلا فما يكون ذلك المصير ، إن أصحابها لم يريدوا بها أن يفسدوا الأمر على الإمام على ليُصلِحُوهُ لمعاوية ، فليس فيهم زعيم من حزبه والعاملين لدولته ،

« ولم يتفقوا على ولاية واحد متهم بعد هزيمة الإمام إن تمت هذه الهزيمة ، وليست هي بالمركب الذلول ،

« إنما هي حملة تهويل إلى المقاسمة في الأمر على وجه من الوجوه التي أشاروا إليها قبل مفارقتهم المدينة ، فيتولى بعضهم العراق وبعضهم اليمن ويصبح الأمر شركة أو « شوري » بينهم وبين الخليفة على قولهم الذي عبروا به عن طلب الولاية في بعض الأحاديث بينهم وبينه ،

« وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة عائشة في موقفها من القتال ومن السياسة العامة على الإجمال .

« . . . فن تمهيد الحوادث الماضية أن طلحة والزبير وعلياً لم يكونوا غرباء عن السيدة عائشة ، ولم تكن هي غريبة عنهم بميولها وسوابق شعورها ،

« فطلحة من بنى عمومتها ومن بنى تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الأول أبيها ،

« والزبير زوج أختها أسماء ، وابنه عبد الله ابنها الذي اختارته لكنيتها في بعض الروايات ، فكانت تُكَنِّي من أجله بأب عبد الله ،

« وعلياً أقرب الناس إلى بيت النبي وزوج ابنته وأبو حفيديه (سبطيه) وصاحب الرأي الذي لا ينسى في حديث الإفك وهو نصيحته للنبي بتطبيقها .

« . . . ثم ها هي ذى مسألة الخلافة والترشيح لها من بين عظماء الصحابة

الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت أبي بكر وعمر وعثمان ومن هؤلاء الصحابة على طلحة والزبير ، وكلهم قد ندبوا للاجتماع في بيت عائشة لاختيار واحد منهم للخلافة وقال لهم عمر يومئذ :

« إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، وإني لا أخاف عليكم إن استقمتم ، ولكن ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة فشاؤروا واختاروا رجلا منكم ،

« وكان جائزاً أن يقع الاختيار في بيت عائشة على طلحة أو الزبير لأنهما وكيلان من وكلاء الشورى ،

« ثم انقضت خلافة عثمان وتجددت المسألة كرة أخرى على النحو الذي شهدت عائشة قديماً في بيتها ، فمع من يكون شعورها ،

« إن طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثنتي عشرة سنة ، وقد تكرر اختيار الخليفة من غير بنى هاشم حتى أصبح في رأى بعضهم كالعرف الذي يجري عليه التقليد . . .

« فإذا كانت السيدة عائشة أميل إلى فريق طلحة والزبير بشعورها وسابقة رجائها ، فليس ذلك بغريب ولا بمخالف للمعهود في طبائع الناس . »

نصيحة ابن عمر :

وقد نصح ابن عمر لنفسه ولطلحة والزبير في الوقت المناسب أكثر من مرة ، وكانت نصيحته خالصة لله وواضحة بيّنة ، ولكن غلب قضاء الله وكان ما كان ، وقد جاء في كتاب « الإمامة والسياسة » لابن قتيبة ما يلي :

لما اجتمعت كلمة القوم على المسير إلى العراق قال طلحة للزبير : إنه ليس شيء أنفع ولا أبلغ من استمالة أهواء الناس من أن نشخص لعبد الله بن عمر ، فأتياه فقالا : « يا أبا عبد الرحمن ، إن أمنا عائشة قد خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين

الناس ، فاشخص معنا ، فإن لك بها أسوة ، فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها ، فقال ابن عمر : أيها الشيخان ، أتريدان أن تُخْرِجاني من بيتي ثم تلقياي بين مخالب ابن أبي طالب ،

« إن الناس إنما يُخدعون بالدينار والدرهم ، وإني قد تركت هذا الأمر عياناً في عافية أناها ، فانصرفا عنه .

ثم غدا مروان إلى طلحة والزبير فقال لهما : عاودا ابن عمر فلعله يُنَّيب فعاوداه ، فتكلم طلحة فقال :

« يا أبا عبد الرحمن ، إنه والله لربَّ حق ضيعناه وتركناه ، فلما حضر العذر قضينا بالحق ، وأخذنا بالخط ، إن علينا يرى إنقاذ بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له ، وإنا نرى أن نردها شورى ، فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهي الهلكة » .

فقال ابن عمر ، وما أبدع ما قال رضى الله عنه :

« إن يكن قولكما حقاً ففضلا ضيعتُ ، وإن يكن باطلا فشرُّ نجوت منه ، واعلما أن بيتَ عائشة خير لها من هودجها ، وأنما المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف ، ولن يقاتل عليا إلا من كان خيراً منه » .

« وأما الشورى فقد والله كانت ففدِّم وأخترتما ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفياي أنفسكما » :

فهل ترى نصيحة أصدق من نصيحة ذلك التقى الورع الذى حجج في حياته المباركة ستين حجة واعتمر ألف عمرة ، ولكن ماذا تجدى النصيحة إذا حمَّ القضاء وشاء الله ما كان .

وجهة نظرى :

أقول : ومن عجيب أن بعض المؤرخين تأثروا بما يقول غلاة الشيعة ، أو بما يكون في طباع البشر ، عادة وربطوا بين موقف إمامنا على بن أبي طالب من حديث الإفك وبين موقف سيدتنا عائشة في معركة الجمل حين خرجت رضى الله عنها مع

طلحة والزبير ، تريد أن تصلح بين الفريقين ، كما طلبوا إليها ، وقال هؤلاء بغير حق إن الإمام حين استشاره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : والنساء سواها كثير — بقيت مرارة قوله هذا في نفسها فانضمت إلى معسكر خصومه في معركة الجمل ، وهذا القول يجافي الحقائق الثابتة التي تناقض قولهم ، وهذه الحقائق هي :

أن الإمام رضى الله عنه نادى الزبير وكلمه قبل أن تبدأ معركة الجمل وذكره بما كان قاله له رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني يياضة حين رآه يسلم على الإمام ويعاتفه فقال له صلى الله عليه وسلم : « أتجبه ؟ قال الزبير كيف لا أحبه وهو أخي وابن خالي ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنك ستقاتله وأنت ظالم له » ،

فلما ذكره الإمام بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الزبير رضى الله عنه للإمام كرم الله وجهه : لقد أذكرتني ما أنسانيه الدهر ، أما إني لو ذكرتها ما خرجت ،

وعندما خرج الزبير من المعركة قال له ابنه عبد الله : يأبيت تعيرنا نساء قريش ، قال له أبوه : يا بني لقد أذكرتني ما أنسانيه الدهر ، يا بني العار ولا النار ، ثم قال الزبير شعراً :

اخترت عاراً على نار مؤججة ما إن يقوم لها خَلَقٌ من الطين
نادى عليّ بأمر لست أجهله عار لعمرك في الدنيا وفي الدين
فقلت حسبك من عدلٍ أبا حسن فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني

ولا غرابة أن يرجع الزبير إلى الحق ، فإنه قال للسيدة عائشة يوماً : ما كنت في موطن منذ عتقكُ إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا ، قالت : ما تريد أن تصنع ، قال : أريد أن أدعهم وأذهب .

وكنلك أفتح الإمامُ طلحةَ رضى الله عنه وكان فيما قاله له : إنك أول من بايعني ثم نكث ، فخرج طلحة من المعركة ، فرماه مروان فقتله مع أنه حليفه ، وذلك بحجة أنه كان يؤلب الناس على عثمان ، وقال مروان حين رمى طلحة خرج الزبير ويخرج طلحة ، وقد قال طلحة — قبل أن يلفظ روحه — لرجل بجواره ،

من أى الفريقين أنت؟ فقال الرجل من فريق أمير المؤمنين علىّ ، فقال طلحة : أبلغه أنى مبايعه ، فلما بلغ قوله أمير المؤمنين قال: أبى الله أن يدخل طلحة الجنة إلا ويبعنى فى عنقه ، ثم نفص التراب على وجه طلحة وقال له: أعزّز علىّ بأن أراك مُجنّداً تحت السماء أبا محمد .

ومع أن الإمام انتصر فى المعركة ، إلا أنه كان شديد التأمّل لما وقع ، حتى ، إنه كان يقول : وددت لو أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين عاماً ، كما كان يقول : لو عرفت أن الأمر يبلغ بنا ما بلغ ما دخلتُ فيه . كما أن الإمام حين رأى محمد ابن طلحة بين القتلى تألم لقتله وقال : رحمك الله يا محمد لقد كنت فى العبادة مجتهداً أثناء الليل قوَّاماً وفى الحرور صوَّاماً ، ثم نظر إلى من حوله فقال : هذا رجل قتله برأيه (١) .

وشاء الله - برغم خروج طلحة والزبير من المعركة - أن يلتحم الجيشان التحاماً شديداً على غير ما أراداه الإمام وطلحة والزبير وأم المؤمنين ، فقد كاد الصلح أن يتم بين الزعماء لولا أن الدهماء من الجانبيين تراموا فقام القتال فجمحت الفتنة واستعصت على الرؤساء فاشتد القتال وقُتل من الفريقين قرابة عشرين ألفاً ، وانتهت معركة الجمل لصلح أمير المؤمنين ، ولما عُقِرَ الجمل الذى كانت تركبه سيدتنا عائشة قالت أم المؤمنين عائشة لأمير المؤمنين : يا ابن أبى طالب : ملكت فأسجِح (٢) ، فقال : غفر الله لك ، فقالت : وغفر لك .

وجاء فى تفسير الإمام القرطبي لسورة الحجرات : إن الأمر بين الطرفين كان قد انتظم وتم الصلح والتفرق على الرضا . فخاف قتلة عثمان رضى الله عنه من التمكن منهم والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا ، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفتروا فريقين ، ويبلهوا بالحرب سحرة (٣) فى العسكرتين ، وتختلف السهام بينهم ويصيح الفريق الذى فى عسكر علىّ : غدر طلحة والزبير ، والفريق الذى فى عسكر طلحة والزبير : غدر علىّ ، فتم لهم ذلك على ما دبروه ونشبت الحرب . ثم أرسل الإمام سيدتنا عائشة رضى الله عنها معززةً مكروهة إلى المدينة ،

(١) كتاب الإمامة والسياسة .

(٢) أعف .

(٣) وقت السحر .

وكان ذلك الإعزاز مثار سخط من الخوارج على أمير المؤمنين ، حتى إنه حين سار ابن عباس رضى الله عنه لجداهم في خروجهم على الإمام، أثاروا فيها أثاروا من اعتراضات على الإمام لإفراجه عن أم المؤمنين عائشة بعد أن وقعت أسيرة في يد جيشه ، فقال لهم ابن عباس وهو يحاجهم: تؤمنون بالقرآن؟ قالوا: نعم ، قال : إن القرآن فرض أمومة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهن السيدة عائشة ، فهل كان يجوز للإمام أن بأسر أمه ؟

واقتمع الأكثرون من الخوارج بما قاله ابن عباس في هذه المسألة وغيرها وكانوا عشرين ألفاً وانصرفوا ، أما القلائل الذين لم يرشدوا وكانوا أربعة آلاف فقد حاربهم الإمام وتغلب عليهم في معركة النهروان وقتل أكثرهم كما هو معروف . والدليل القاطع على أن أم المؤمنين أرادت بخروجها الإصلاح بين الناس ، ورد صريحاً في جوابها على رسالة بعثت بها إليها أم المؤمنين سيدتنا أم سلمة رضى الله عنها ، وقد وصلتها تلك الرسالة في الطريق وهي سائرة إلى البصرة ونصها :

يا عائشة . إنك سدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أمته ، حجابك مضروب على حرمة . وقد جمع القرآن ذبلك فلا تلجيه ، وسكّن عقيرك فلا تصحريهما ^(١) ، الله من وراء هذه الأمة ، قد علم رسول الله مكانك لو أراد أن يعهد إليك .

« ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو عارضك بأطراف الفلوات ناصة قلوبك ^(٢) ، قعوداً من منهل إلى منهل ؟

« إن بعين الله مثواك ، وعلى رسول الله تعرضين .

« ولو أمّرتُ بدخول الفردوس لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكةً حجاباً جعله الله على » . فكتبت إليها السيدة عائشة رضى الله عنها تقول :

« ما أقبلني لوعظك ، وأعلمني بنصحك؛ وليس مسيرى على ما تظنين ، ولنعم المطلع مطلع أصلحت فيه بين فئتين متناحرتين ^(٣) . ولا شك أن أم المؤمنين في

(١) أى إن الله ألزمك أن تبقّى في البيت .

(٢) سائرة بناقتك .

(٣) العقد الفريد والإمامة والسياسة .

تقواها لا تقول إلا حقاً فيما أجابت به .

ثم إنهما همت بالرجوع من الطريق لولا شهادة زور شهدها بها بعض الأعراب ، فقد روى الطبري وابن قتيبة أن السيدة عائشة سمعت في طريقها إلى البصرة نباح كلابٍ فقالت : أى ماءٍ هذا ؟ فقالوا : الجواب .

فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إني لسهية^(١) وما أراني إلا راجعة .

قالوا : ولم ؟

قالت : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لئن سألتني إحداهن أن تقولن إنى نسأت ، وإياك أن تكوني أنتِ يا حميراء^(٢) .

فأتوا لها ببعض أعراب شهدوا زوراً أن المكان ليس هو الجواب وكانت بكل أسف هذه أول شهادة زور وقعت في الإسلام ، فسارت رضى الله عنها معهم مكذوبةً مخدوعةً .

فما كانت أم المؤمنين تتوقع أن يغلب قضاءُ الله ويقع القتال الميرير بين بنيتها المؤمنين من الفريقين ، ولقد قال الزبير حين رأى الغوغاء تحرش بين الناس وتفتح بينهم طرقاتاً إلى الالتحام : « ما كنت^(٣) أرى أن مثل ما جئنا له يكون فيه قتال » .

ولم يربط الإمام على كرم الله وجهه موقف أم المؤمنين منه في معركة الجمل بموقفه منها في حديث الإفك ، وهو في ذلك الوقت كان أقدر من غيره على تحليل الموقف من أهل زمانه ، ومن جاءوا بعدهم من باب أولى ، وإليك كتابه إليها وجوابها عليه ، منقولاً من كتاب السياسة والإمامة لابن قتيبة :

كتب أمير المؤمنين لسيدتنا عائشة يقول قبل أن يقع قتال :

« أما بعد فإنك خرجت عاصية لله ولرسوله ، تطلين أمراً كان عنك موضوعاً ، ما بال النساء والحرب ، والإصلاح بين الناس .

« تطالين بدم عثمان ، ولعمري لئن عرّضك للبلاء ، وحملك على المعصية

(١) إني المقصودة بما قاله النبي صلى الله عليه وسلم عن نبح كلاب الجواب .

(٢) لقبه صلى الله عليه وسلم لسيدتنا عائشة رضى الله عنها .

(٣) كتاب البيان والتبيين .

أعظم إليك ذنباً من قتل عثمان ، وما غضبت حتى أغضبت ، وما هيجت حتى هيجت ، فاتق الله وارجعى إلى بيتك .

فأجابته في إيجاز قائلة رضى الله عنها : جل الأمر عن العتاب .

وأرسل إليها أمير المؤمنين بعد ذلك ابن عمه عبد الله بن عباس يقول لها :
... إن جماعة قد أغروك فخرجت من بيتك فوقع الناس لاتفاقتك معهم في البلاء والعناء ،
وخير لك أن تعودى إلى بيتك ، ولا تحوى حول الخصام والقتال ، وإن لم تعودى
ولم تطفئ هذه الثائرة ، فإنها سوف تعقب القتال ويقتل فيها كثير ، فاتق الله
يا عائشة ، وتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو ، وإياك أن
يدفعك حب عبد الله بن الزبير وقرابة طامحة إلى أمر يعقبه النار .

فلما بلغها ابن عباس رسالة الإمام قالت رضى الله عنها : إني لا أرد على
ابن أبي طالب لأني لا أبلغه في الحججاج .

فانظر ، كيف أرجع أمير المؤمنين موقفها في الرسالة الأخيرة إلى حب ابن
أختها عبد الله بن الزبير والتحيز إلى ابن عمها طلحة بن عبيد الله ، وانظر كيف
كان تصويرها للإمام في قوة حجته وكأتما صدقته فيما قال ولم تدفع حجته بحجة
معارضة ، وكيف تجحد فضله وقد قالت في حقه : إن كان ما علمت صوأمًا قوأمًا ،
وذلك حين سئلت : أى الناس أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت :
فاطمة ، فقليل لها : ومن الرجال ؟ قالت : زوجها إن كان ما علمت صوأمًا
قوأمًا .

كما أنها وهى خارجة من البصرة قالت : أيها الناس لم يكن بينى وبين على
في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها (أهل الزوج) فلم تكن الحصومة إذن عندها
بسبب رأى الإمام في قصة الإفك ، وإنما هى كراهة فطرية معتادة تكون بين
المرأة وأهل زوجها ، والإمام كرم الله وجهه أثبت قيام تلك الكراهة ، ولم ينكرها
أو يرددها لموقفه منها في حديث الإفك ، فقد قال في إحدى خطبه كما رواها ابن
أبي حديد في شرح نهج البلاغة « أما فلانة فقد أدركها ضعف النساء وضعفن
غتلًا في صدرها كرجل القين ، ولو دعيت لنتال من غيرى ما أتت إلى لم

تفعل ، ولها بعد حرمتها الأولى والحساب على الله ، والله يعفو عن يشاء ويعذب من يشاء ، ولا يفوتك أن تذكر للأمام أدبه العالی فی قوله : ولها بعد حرمتها الأولى ، وفي قوله « فلانة » دون تصريح باسمها صيانة لحرمتها ، ولا عجب فإنه يتمسك دائماً بالحق مع أنصاره وخصومه على السواء ، كرم الله وجهه .

أم المؤمنين وابن الزبير :

وليس بالأمر الغريب أن تحب الخالة ابن أختها وبخاصة أن أم المؤمنين لم ترزق بأولاد من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت تُكَنَّى بأم عبد الله ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال لها : تكنى بابنك عبد الله ، فكان يقال لها : يا أم عبد الله ، ولقد جاء في شرح « نهج البلاغة » : ما سُمِعَتْ أم المؤمنين تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها لعبد الله بن الزبير وقد أعطت للذى بشرها بسلامته من القتل عشرة آلاف درهم ، ثم سجدت شكراً لله تعالى ، ولما اعتلت دخل عليها بنو أختها ومنهم عبد الله فبكى ، فرفعت رأسها تنظر إلى وجهه فانتبت لبكائه ، فبكت ثم قالت : ما أحقنى منك يا بنى ما أرى ، فما أعلم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أبوى أحداً أنزل عنى منزلتك ، وأوصت له بحجرتها .

ولم يقف تأثير عبد الله عند خالته أم المؤمنين ، بل تعداه إلى أبيه الزبير رضى الله عنه ، حتى لقد كان أئمة المؤمنين على كرم الله وجهه يقول : ما زال الزبير رجلاً من أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله .

تقوى الإمام :

على أننا نستعري النظر إلى أن أمير المؤمنين علياً لم يكن في القتال متشفيماً في خصومه ، بل كان أميراً تقيماً رحيماً ، ينظر للمسلمين نظرة الأب إلى أبنائه بالسوية ، فقد نقل ابن أبي حديد في شرح نهج البلاغة عن الواقدي قوله :

« إنهم كانوا حول الحمل يُحامون عنه ولقد كانت الرروس تندر عن الكواهل ^(١) »

(١) تقطع الرروس عن الأجسام .

والأيدي تطيح من المعاصم ، وأفتاب البطون تندلق من الأجواف ، وهم حول الجمل
كالجبال الثابتة لا تتحلحلُ ولا تنزلزل ، حتى لقد صرخ على بأعلى صوته :
ويلكم اعقروا الجمل فإنه شيطان ، اعقروه وإلا فنيت العرب ، لا يزال السيف
قائماً راكمعاً حتى يهوى هذا البعير إلى الأرض .

وروى الطبرى : ونادى على أن اعقروا الجمل ، فإنه إن عقيرتفرقوا ، فضر به
رجل فسقط ، فما سُمع صوت أشد من عجيح الجمل .

ولما احتُمِلَت السيدة عائشة رضی الله عنها يهودجها أمر الإمام بالجمل
أن يحرق ثم يذر في الريح ، وقال : لعنه الله من دابة ، فما أشبهه بعجل
بنى إسرائيل ، ثم قرأ كرم الله وجهه : (وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ
عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا) .

وتفرق الناس بعد موت الجمل ، فنادى منادى أمير المؤمنين :

« أَلَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ » ، « وَأَلَا يُتَّبَعُ مَوْالٌ » « وَأَلَا يَطْعَنُ مُدْبِرٌ » ،
« وَلَا يَسْتَحْلَنُ فَرَجٌ وَلَا مَالٌ » .

ولما استشار سيدنا عمارُ بن ياسر رضی الله عنه أمير المؤمنين كرم الله وجهه
في الأسرى الذين وقعوا في أيديهم وقال له : أقتل هؤلاء الأسرى يا أمير المؤمنين ؟
قال الإمام : لا أقتل أسير أهل القبيلة إذا رجع ونزع ^(١) ، فبايع الأسرى وأخلى
سبيلهم .

ولما قال له أنصاره : مالنا في هؤلاء الناس ، أجايبهم :

لكم ما في عسكريهم وعلى نسائهم العدة ^(٢) (أى نساء القتلى) ، وما كان
لهم من مال في أهليهم فهو ميراث على فرائض الله .

فقال له أنصاره : يا أمير المؤمنين كيف تحل لنا أموالهم ولا تحل لنا نساؤهم
ولا أبناؤهم ؟ فقال : لا يحل ذلك لكم ، فلما أكثروا عليه قال : اقرعوا هاتوا

(١) التزم بطاعة الوالى .

(٢) أى تمتد بأربعة أشهر وعشراً وهى عدة من توفى عنها زوجها من المسلمين .

بسهامكم ، أياكم يأخذ أمكم عائشة في سهمه .
فقالوا : نستغفر الله ، فقال : وأنا أستغفر الله (١) .

وقد روى ابن قتيبة في كتاب « الإمامة والسياسة » أن محمد بن أبي بكر دخل على أخته عائشة (أى بعد المعركة) فقال لها : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : على مع الحق ، والحق مع على ثم خرجت تقاتلينه على دم عثمان ؟ قال : ثم دخل عليها الإمام على فسلم وقال : يا صاحبة المودج ، قد أمرك الله أن تقرى في بيتك ثم خرجت تقاتلين ؟ أترحلين ؟ قالت : أترحل ، فبعث معها أمير المؤمنين كرم الله وجهه أربعين امرأة ، وأمرهن أن يلبسن العمام ويتقلدن السيوف وأن يكن من الذين يلينها ولا تطلع على أنهن نساء ، فجعلت عائشة تقول في الطريق (ظناً منها أنهن رجال) : فعل الله في ابن أبي طالب وفعل ، بعث معي الرجال ، فلما وصل الركب المدينة وضعت العمام والسيوف ودخلن عليها فقالت : جزى الله ابن أبي طالب الجنة ، فانظر كيف دعت للإمام بالجنة حين علمت حقيقتهم ، وهو صفاء ليس بمستغرب منها وهي إحدى نساء النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي تأسسن بخلقه وتأدين بأدبه وتميزن بذلك الأدب العالى عن سائر نساء المؤمنين . وهل ترى أروع من شهادة إحدى ضرائرها وهي السيدة زينب بنت جحش حين سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الإفك فقالت بعد أن استعاذت بالله : « أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خيراً » - كما أن أم المؤمنين عائشة شهدت بالفضل لضررتها السيدة سودة حين تركت ليلتها لها وهي راضية ، فقالت السيدة عائشة تشكرها : « ما رأيت امرأة أحب إلى أن أكون في مسلاخها (٢) من سودة » .

أقول : فباذا تعلق المكارم إلا أن تكون من فضل الله عليهن ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أمير المؤمنين قبل أن يشير عليها بالرحيل أرسل إليها ابن عمه عبد الله

(١) كتاب الإمامة والسياسة .

(٢) أى أكون مثلها .

ابن عباس رضى الله عنهما وكانت في بيت من بيوت البصرة أنزلها أمير المؤمنين فيه ، وقال له الإمام فيما رواه - صاحب العقد الفريد : ائت هذه المرأة فلترجع إلى بيتها الذى أمرها الله أن تقر فيه .

بين أم المؤمنين وابن عباس :

قال ابن عباس ، فجلت فاستأذنتُ عليها فلم تَأْذَنْ لِي ، فلخلتُ بلا إذن ، ووددتُ يدي إلى وسادة في البيت فجلستُ عليها ، فقالت أخطأت السنة مرتين : دخلت بيتي بغير إذن ، وجلست على متاعى بغير أمرى .

فقال : نحن علمناك السنة (يقصد أنه من بنى هاشم الذين شرفهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم وعنه أخذتُ هي السنة ، وسيوضح مقصده هذا من بقية حديثه) والله ما هو بيتك إلا الذى أمرك أن تقرى فيه فلم تفعل ، إن أمير المؤمنين يأمرك أن ترجعى إلى بلدك الذى خرجت منه ،

قالت : رحم الله أمير المؤمنين ، ذاك عمر بن الخطاب .

قال : نعم وهذا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ،

قالت : أبيتُ أبيتُ

قال : ما كان إباؤك إلا فَوَاقِ نَاقَةَ بَنِيكَ ثُمَّ (١) صرت ما تَحْلِدِينَ وله تَمْرَيْنِ (٢) ، ولا تأمرين ولا تنهين . قال ابن عباس : فبكت حتى علا نسيجها ، ثم قالت : نعم أرجع ، فإن أبغض البلدان إلى بلد أنتم فيه .

قال ابن عباس : أما والله ما كان ذلك جزاءنا منك ، إذ جعلناك للمؤمنين أمماً ، وجعلنا أباك لهم صديقاً (يقصد بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وعلى أبيها كما أشرت آنفاً) .

قالت : أتمنُّ على برسول الله يا ابن عباس ؟

قال : نعم : نَسَمُنُ عَلَيْكَ بِمَنْ لَوْ كَانَ مِنْكَ بِمَنْزَلَتِهِ مَنَا لَمَنْتُ بِهِ عَلَيْنَا .

(١) بكية أى قليلة اللبن ، والفواق ما بين الحلبتين .

(٢) يقال أمررت الحبل والخيط أى فتلكه قتلا شديدا .

قال ابن عباس : فأُتيتُ علياً فأخبرته ، فقبَّل بين عَيْنَيْهِ وقال : بأبي أنت : ذريةٌ بعضُها من بعض .

أم المؤمنين في الغضب والرضا :

فانظر كيف كانت في ساعة الغضب ، وكيف كانت رضى الله عنها في ساعة الرضا ، فقد قالت في الرضا عندما وصلت المدينة كما مرَّ عليك : جزى الله ابن أبي طالب الجنة .

فهى رضى الله عنها وإن تأثرت بسخط النفس البشرية إلا ، أن طهارة نفسها التقية كانت تردّها إلى الحق وتناهى بها عن مزالق الحقد ، وكيف لا يكون منها ذلك المسلك وغضب المؤمن كالبرق الخاطف كما جاء في الحديث الشريف ، فكيف الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما ، وهى سفيرته الأولى ، صلى الله عليه وسلم ، إلى المؤمنات في عصره والعصور التالية له ، فكانت رضى الله عنها تحضره إذا بايع النساء أو صلى بهن أو جلسن إليه يسألنه في أمور الدين وآداب الزوجية ، وكان أحياناً يعرض عن الجواب حياءً ويعهد إليها بتفسير ما يقول . لا بل إنها كانت كذلك مرجعاً للرجال في السنن النبوية والأحكام الشرعية وفي الشؤون العامة والخاصة ، وكان المؤمنون يفرعون إليها شاكين مما يسوؤهم من تصرفات الولاة في خلافة أمير المؤمنين عثمان ، حتى قال رضى الله عنه في تبرمه من مسلك أهل العراق : « أما يجرد مرّاق أهل العراق وفُسّاقهم ملجأً إلا بيت عائشة ؟ » وذلك حين كانوا يطلبون عزل الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة ، وكان الوليد أنحاً من الأم لأمر المؤمنين عثمان ، وكذلك شكوا أهل مصر لأم المؤمنين واليهام عبد الله بن أبي سرح ، وطلبوا أن يولى عليهم محمد بن أبي بكر ، واستجاب الخليفة لهم ، وحين دخل بنو أمية مصر قتلوا محمداً هذا ومثلوا به أبشع تمثيل ، فقد قتلوه وهو ظمآن ووضعوه في جوف حمار ميت ثم شووه بعد أن جرّوه من رجليه في أسواق مصر ، وأشهدوا السفلة والصبيان على مُثَلّسته ، ثم أرسلوا قميصه وهو بدمه إلى المدينة ، وشوت أخت معاوية بن خديج خروفاً وأهدته إلى أم المؤمنين في العيد وأوصت رسولها أن يقول لها : هكذا كان شئُ أخيك ، قالوا فما أكلت السيدة عائشة بعدها

شويماً قط ، وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله .

وفي مناسبة واقعة التمثيل هذه يتعرض العلامة العقاد في كتابه « الصديقة بنت الصديق » إلى الأباطيل التي نسبت للسيدة عائشة فيقول :

« وخليق بنا أن نزداد حذراً من هذه المبالغات على قدر أصحاب المصلحة في قبولها ، وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان وهما : مصدر أصحاب معاوية ومصدر الشيعة أصحاب عليّ ، يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وزرهم في المُشكلة بأخيها والحيف عليها ، ويريد الآخرون أن يبطلوا موقفها من مطالبة عليّ بدم عثمان ، وأن يثبتوا براءة عليّ من دم الخليفة القتل ومشاركة عائشة في هجمة قاتليه ، فضلاً عن مصلحة القاتلين أنفسهم في التعلل بهذا السند الذي يعفيهم من لوم كثير . »

ويقول العلامة العقاد رحمه الله في موقف أم المؤمنين في السياسة العامة في خلافة أمير المؤمنين عثمان وبعده ما يلي :

« بدأت السيدة عائشة مشاركتها الأولى في السياسة العامة وهي إلى الاضطرار أقرب منها إلى الاختيار ،

« أما مشاركتها الثانية - أي في معركة الجمل - فقد كان اختيارها فيها أكثر من اضطرارها ، فإنها تلقت خلافة عليّ من مبدئها بالسخط والمقاومة ، وأذنت لبعض الطامحين إلى الخلافة أن يتوسلوا بجهاها ويشركوها معهم في خصوماتها ، وكان أكرم لهم ولها لو أنهم جنبوها الحصومة وأنزلوها بحيث يعتصم بها الفريقان ، ويستوى في جيرتها العسكران فتركوا لها مندوحة للمراجعة ، يوم دعاها الدعاء بعد تفاقم الفتنة إلى السعي بينهم بالتوفيق .

« وأصوب ما قيل في هذا المعنى مقال ذلك الفتى السعدى الذى تصدى للزبير وطلحة فقال لهما : أما أنت يا زبير فحوارى رسول الله ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أم المؤمنين معكما فهبل جئتما بنسائكما ؟

مزايا أم المؤمنين :

روى الإمام القرطبي بسنده عن أم المؤمنين قولها رضی الله عنها وهي تتحدث بنعمة الله عليها : قد أعطيتُ تسعاً ما أعطيتهنَّ امرأة : لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى في راحته حين أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يتزوجنى ، ولقد تزوجنى بـكراً وما تزوج بـكراً غيرى ، ولقد توفى صلى الله عليه وسلم وإن رأسه لى حججرتى ، ولقد قُبرَ فى بيتى ، ولقد حفَّت الملائكة بيتى ، وإن كان الوحي لينزل عليه وهو فى أهله فينصرفون عنه ، وإن كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه فما يبيننى عن جسده ، وإنى لابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عُدْرى من السماء ، ولقد خلقت طيبة وعند طيب ، ولقد وُعدت مغفرة ورزقاً كريماً ، تعنى بذلك قوله تعالى : (لهم مغفرة ورزق كريم) وهو الجنة .

وفى رواية أخرى قالت : فُضلت على نساء النبى صلى الله عليه وسلم بعشر : لم ينكح بـكراً قط غيرى ، ولا امرأة أبواها مهاجران غيرى ، وأنزل الله براءتى من السماء ، وجاء جبريل بصورتى من السماء فى حريرة ، وكنت أغتسل أنا وهو فى إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه دون غيرى ، وكان ينزل عليه الوحي وهو معى ولم ينزل وهو مع غيرى ، وقبض وهو بين سحرى ونحرى ، وفى الليلة التى كان الدور علىَّ فيها ، ودفن فى بيتى .

بلاء الإمام :

والحق الذى لا مِرْيَةَ فيه أنَّ بلاء الإمام فى هذه الفتنة كان بلاءً مُرّاً ، وقد صدق كرم الله وجهه حين قال فى إحدى خطبه :

« . . . وإنى بليت بأربعة ، أدهى الناس وأسخاهم - طلحة - وأشجع الناس - الزبير ، وأطوع الناس فى الناس - السيدة عائشة ، وأسرع الناس إلى فتنة - يعلى بن أمية (كان والياً لأمير المؤمنين عثمان على اليمن وعزله) .

ولم يغيب عن الإمام أنه سيلقى فتناً كقِطْع الليل المظلم فقد كان ذا قلب مستنير وعقل كبير ، ولكن الخلافة أتته راغمة ولزمه شرعاً أن يحمل عبأها لوجه الله مهما ثَقُل عليه ذلك العبء كما بين ذلك في إحدى خطبه - حين قال بعد اشتداد الفتن :

أما والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر (أى وقوع الفتن) وقيام الحجّة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظلم ولا سغب مظلوم لألقت حبلها على غاريها (أى لتعلى عن الخلافة لولا مالزمه شرعاً من البقاء فيها دفعاً للظلم عن المظلومين) .

ومن العجيب أن يبئى الإمام بهذه الفتن المتكررة مع أنه لم يطلب الخلافة وإنما هى التى طلبته ، فقد روى الشريف الرضى - كما جاء فى نهج البلاغة - أنه حين تزاخم الناسُ على الإمام بعد استشهاد أمير المؤمنين عثمان ، وأرادوا بيعته خطب فيهم فقال :

دعوني واتمسوا غيرى ، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت ، والمحجّة قد تنكرت ، واعلموا أنى إن أحببتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعشّب العاتب ، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ، ولعلى أسمعكم وأطوّرکم لمن وليتموه أمرکم ، وأنا لكم وزيراً خيراً لكم منى أميراً .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى شرح تلك الخطبة : وقد كان بعد بيعته ما تقرّس به قبّلها .

تزاخم الناس على بيعة الإمام :

هذا وإذا أردت أن تعرف كيف تزاخم الناس على بيعة الإمام على كرم وجهه فاستمع إليه وهو يصف التزاخم كما جاء فى نهج البلاغة :

« فما راعنى إلا والناس كعرف الضبع - وهو كثيف الشعر - إلى ، ينثالون^(١) »

على من كل جانب ، حتى لقد وطىء الحسان ، وشق عطفائى ، مجتمعين حولى كربيضة الغنم ، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وفسق آخرون .

اتهم باطل :

ومن غريب الأمر أن يتهم الإمام بقتل أمير المؤمنين عثمان ، مع أن الإمام أمر ولديه السبطين الحسن والحسين بالوقوف على بابهِ لحراسته من الثوار ، مع أنه كان يضمن بهما كل الضن خشية أن ينقطع بموتهما نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقد أصاب الإمام الحسن سهم الثوار وسال الدم على وجهه) ، وأمدّه بالماء حين منعه الثوار عنه ، وليس عمّامة وتقلّد سيفه وقال لأمير المؤمنين عثمان مُرْنَا فلنقاتل ، فلم يشأ أمير المؤمنين أن تراق بسببه ملاء محجة من دم ، وكان الإمام على السفير المؤمن بينه وبين الثوار ، وكان أمير المؤمنين عثمان يستنجد به كلما ضاق عليه الأمر حتى إنه كتب إليه يقول :

فإن كنتُ مأكولاً فكنْ خيرَ آكلٍ وإلا فأدركتني ولماً أُمزقِ

وقد كسر الإمام بيتَ المال بعد أن كان طلحة قد استولى عليه ، وأرضى الإمامُ الثوارَ بالعطاء ، وسرَّ ذلك أمير المؤمنين عثمان ، ولما جاء طلحة وقال له جئتكَ تائباً قال بل جئتني مغلوباً ، الله حسينك ، ومع كل ذلك اتهموا الإمام بأنه قاتلُ عثمان ، وما ظهرت تلك التهمة الكاذبة إلا بعد بيعة الإمام بالخلافة حتى قال ابن سيرين رضى الله عنه كما جاء فى العقد الفريد : ما علمت أن علياً اتهم بدم عثمان حتى بويع ، فلما بويع اتهمه الناس .

صبر جميل ورأى حازم :

أقول : ومع مرارة البلاء الذى ابتلى به كان كرم الله وجهه صابراً محتسباً ، راضياً بقضاء الله وقدره ، لا يعتز إلا بالله ، ولا يعتمد على سواه ، ويبين لنا ذلك واضحاً فيما كتبه لأخيه عقيل رداً على جواب كان بعثه إليه فى بداية الفتنة ،

فقد كان فيما كتب الإمام ، كما روى ابن قتيبة :

« ... وأما ما سألت أن أكتب إليك فيه برأى ، فإن رأى جهاد المحققين حتى ألقى الله ، لا يزيدنى كثرة من حولى عزة ، ولا تفرقهم عنى وحشة لأنى مُحِقّ ، والله مع الحق ، وما أكره أن أموت على الحق ، لأن الخير كله بعد الموت لمن عقل ودعا إلى الحق :

« وأما ما عرضت من مسيرك إلى بينك وبنى أبيك ، فلا حاجة لى فى ذلك ، فذرهم راشداً مهدياً ، فوالله ما أحب أن تهلكوا معى إن هلكت ، وأنا كما قال أخو بنى سليم :

فإن تسألنى كيف صبرى فإننى صبور على ريب الزمان صليب
عزير على أن أرى بكآبة فيشمت واشٍ أو يساء حبيب

صفاء الإمام :

وإن أردت أن ترى صفاء أمير المؤمنين على كرم الله وجهه فى آخر الأمر كما رأيت فى أوله فهالك ما رواه ابن قتيبة فى كتاب الإمامة والسياسة .
دخل موسى بن طلحة على الإمام على كرم الله وجهه بعد معركة الجمل ، قال له الإمام :

« إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم : (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ، إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) . فاعجب معى أيها القارئ من هذا التسامح الذى تخطى فيه الإمام كرم الله وجهه نزعات البشر فى خصام أدّى للقتال المرير .

وأسمى على بالبصرة^(١) ذلك اليوم الذى أتاه فيه موسى بن طلحة ، فقال له ابن الكواء : أسمى بالبصرة يا أمير المؤمنين . (خاف ابن الكواء أن يغدر به أهلها) .

قال الإمام : كان عندى ابن أخى .

(١) كانت البصرة فى صف طلحة والزبير .

فقال ابن الكواء : ومن هو ؟

قال : موسى بن طلحة .

قال ابن الكواء : لقد شقينا إن كان ابن أخيك .

فقال الإمام : ويحك ، إن الله قد اطلع على أهل بدر فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »^(١) .

ولا تعجب مع مقالة ابن الكواء أن كان رأساً بعد ذلك من رموس الخوارج وداعية من دعائهم حتى قتل في موقعة النهروان . وقد ذهب هؤلاء الخوارج في تطرفهم إلى القول بأن عائشة وطلحة والزبير كفروا بمقاتلتهم علياً ، وتولوا علياً إلى ما قبل التحكيم ، فلما قبل التحكيم ، قالوا بكفره وأباحوا دمه ودم كل مسلم لا يقول بقولهم ولا يدين بمذهبهم .

فقه الإمام :

وقد سئل الإمام على كرم الله وجهه عن خصومه في معركة الجمل فيما رواه ابن أبي حديد في شرح « نهج البلاغة » ف قيل له : أكفّارهم ، فقال : لا ، من الشرك فروا ، قالوا : أمستأفِقُونَ هم : قال : لا ، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً وهم ليسوا كذلك ، فقالوا له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بسغوا علينا . وقد رأيت مما مر عليك أنه قاتلهم قتال أهل البغي ، فلم يُجهز على جريح أو يقتل مُدبراً ، أو يأسر مستسلماً ، أو يسرق النساء .

رأى أهل السنة :

والرأى الذى يعتقده المسلمون من أهل السنة هو ما يقول به الأشاعرة وهو كما جاء في كتاب « المليل والنحل » : إن أصحاب الجمل أخطأوا ، ولكنه خطأ مغفور ، كخطأ المجتهد في بعض مسائل الفروع ولا يلزم به الكفر ولا الفسوق ولا التبرؤ ولا العداوة . فكن مع أهل السنّة في اعتقادهم هذا فإنهم بتوفيق الله على الحق .

(١) كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الإمام سليم في موقفه :

أما موقف الإمام فلا شك أنه موقف سليم من مبدئه إلى منتهاه، فإن الذين بايعوه بالمدينة هم الذين بايعوا الخلفاء أبا بكر وعمر وعثمان وكان من بينهم طلحة والزبير ، فالتزموا رضي الله عنهما ببيعتهما ، ولكنهما أتياه بعد فراغ البيعة - فيما رواه ابن قتيبة - فقالا له : هل تدرى علام بايعناك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، على ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان ، فقالا : لا ، ولكننا بايعناك على أنا شريكاك في الأمر ، فقال الإمام : لا ، ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز والأود .

ولم يرض طلحة والزبير بموقف الإمام منهما ، وكان طلحة يقول : ما اللوم إلا علينا ، كنا ثلاثة من أهل الشورى (طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وقد تنحى سعد) كرهه أحدنا وبايعناه وأعطيناه ما في أيدينا ومنعنا ما في يده .

وقد أشار ابن عباس على الإمام بأن يؤتى البصرة الزبير ، ويولى طلحة الكوفة ، فقال له الإمام فيما قال : . . . ولو كنت مستعملاً أحداً لضررته ونفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأى .

الأستاذ الخطيب في إنصافه للإمام :

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه القيم « على بن أبي طالب » في موقف كبار السادة الصحابة الكرام في معركة الجمل :

« إن المرء ليحار إذ يرى هؤلاء النخبة المتخيرة من الناس تغلب على أمرها في بعض المواقف ، ويخلط رأياها وبصرها ، وتركبها حيرة محيرة فلا تدرى أية وجهة تتجه ، ولا أى مسلك تسلك ، ولا تأويل لهذا إلا أنه ابتلاء ابتلى الله به عباده ، وامتحان امتحنهم به ، وما نحسب القتلى الذين سقطوا في هذا البلاء إلا في عداد الشهداء كمن يموتون بوباء من الأوبئة الجائحة .

« يقول الزبير ، رضي الله عنه ، عشية الاستعداد للمعركة ، إن هذه لهي الفتنة التي كنا نحدث عنها » ؛ فيسأله سائل : أتسميها فتنة وتقاتل فيها ؟

« فيقول له : ويحك ! إننا نُبْصِر ولا نُبْصِر . ما كان أمر قط إلا عرفت موضع قدمي فيه غير هذا الأمر . فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر (الطبرى) »

« إن الزبير رضى الله عنه ، يعلم أنها فتنة ويقاقل فيها . إنه لا يملك الفتنة ولكنها تملكه . إنها قَدَرٌ غالبٌ لا مرد له ،

« وإذا كان هذا هو شأن أصحاب الرسول والصفوة المتخيرة من صحابته ، فكيف بعامّة الناس ، وكيف بمن انقاد للفريقين .

« . . . يقول الزبير ، رضى الله عنه ، وقد رأى الغوغاء تحرّش بين الناس ، وتفتح بينهم طرقاً إلى الالتحام والقتال . يقول : ما كنت أرى أن مثل ما جئنا له يكون فيه قتال (١) .

« ولو أنه خلى بين الصحابة وبين هذا الخلاف لعالجوه بغير الحرب ، ولأعطوا الرضا من أنفسهم ولكن كان ما كان ، ووقع ما لم يكن في الحساب :

« وأقول في نهاية المطاف إن الحق كان مع الإمام على كرم الله وجهه . وغلبة المقدر عذرت خصومه فقد قدروا شيئاً وقدر الله غيره ، فتأبوا وندموا على ما كانوا . فلنذكر الحق والتائبين بالفضل ، ولنرعى حرمة الإمام وحرمة طلحة والزبير بالصحبة ، والثلاثة من العشرة المبشرين بالجنة ، ولنحفظ حرمة سيدتنا أم المؤمنين ، فهي أحب نسائه إليه صلى الله عليه وسلم ، وهي الصديقة بنت الصديق كما لقبها المحدثون عنها من الصحابة الأخيار ، وقد نزلت براءتها في حديث الإفك من السماء وصارت قرآنا يتلى في المحاريب . والله الأمر من قبل ومن بعد » . ولعلك توافقني في أن رأى الأستاذ عبد الكريم الخطيب رأى منصف .

عذر الإمام :

أقول : وهب أن أم المؤمنين عائشة كانت تنتظر أن يشهد لها الإمام على في حديث الإفك ، فهل شهد عليها في قوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يضيق عليك ، وقد قصد الإمام بذلك أن يُفْرِجَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو فيه من ضيق ، لا عن شك في مسلك زوجه الأثيرة ، ولكن عن إشاعة الفاحشة فيها كذباً على ألسنة ألد أعدائه من المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول .

تسامح أم المؤمنين :

وقد دلتنا أم المؤمنين بموقفها بعد ذلك من سيدنا حسان بن ثابت على أنها لا تحمل بين جنبيها قلباً حقوداً ، ولا خلقاً عنيداً ، فمع أن حسان كان ممن خاضوا في حديث الإفك وجُلِدَ بسببه ، فإنها كانت تترنّى له لفقد بصره ، فقد حدّث مسروق فقال: دخلت على عائشة وعندها حسان فقلت لها: أيدخل عليك هذا وقد قال الله عز وجل :

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ^(١) مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) . فقالت : أما تراه في

عذاب عظيم قد ذهب بصره ؟

وقال هشام بن عروة عن أبيه : كنت قاعداً عند عائشة فمروا بجنازة حسان ، فسئلتُ منه ، فقالت : مهلاً ، فذكرتها كلامه ، فقالت فكيف بقوله :

فإن أبي ووالدهُ وعرضي لعرض محمد منكم وقراء
وأضافت رضى الله عنها قائلة : إن الله يتغفّرُ له بهذا البيت .

ويقول العلامة العقاد في تعقيبه على هذه الرواية : ولا شك أن الذى ذكرته السيدة عائشة لحسان لا ينسى ، وأن الذى صفحت عنه بعد ذلك كثير ، وإن حمد الصفح هنا أولى من ملاحظة التذكير والتبكيث .

أقول : فأيهما أولى بالصفح ؟ حسان الذى خاض في حديث الإفك وأقيم عليه الحد ، أو الإمام في موقفه من حديث الإفك حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يضيع عليك - النساء كثير ، وليس في ذلك خوض بإفك بل تخفيف على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ضاق صدره بما يقولون كذباً ورجماً بالغيب .

وإذا كانت أم المؤمنين قد قدّرت لحسان دفاعه بلسانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفلا تقدر لأمير المؤمنين دفاعه بسيفه في نصرته الله ورسوله وافتداء رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بات في فراشه ، وهى الأملية الرشيدة التى

أدركت كذلك جهاده في بدر وفيها والاهما من الغزوات ، ثم هل كان يفوتها ما كان للإمام من مكانة وإعزاز عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهل جهلت أن الله تعالى صان ذريته صلى الله عليه وسلم وجعلها من صلب الإمام ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال معتزاً بسبويه الحسن والحسين رضي الله عنهما : « إنما هما ابناي وابنا ابنتي ، اللهم إنني أحبهما فأحبتهما وأحب من يحبهما » وهل كانت تجهل ما كتبه صلى الله عليه وسلم من محبة للإمام وزوجته الزهراء ؟ فكيف لا تحب بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإرضاء الله ورسوله وإن خالفت في هذا الحب هواها ؟ إن السيدة الزهراء جاءت أباهما صلى الله عليه وسلم برجاء من زوجاته فقالت له : إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر فقال لها : يا بنية ألا تحبين ما أحب ؟ قالت : بلى . قال : فأحبي هذه يشير إلى عائشة ، فهذه تربيتة الشريفة التي لا تفوت أم المؤمنين التي امتازت بسعة العلم وقوة الإدراك والحرص على مرضاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان الإمام مخيراً بين إرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين إرضاء أم المؤمنين ، فمن الطبيعي أن يكون أكثر مواساة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في شدته النفسية في حديث الإفك ، وإذا كان لا بد لأم المؤمنين من إرضاء أحد الخصمين في معركة الجمل فمن الطبيعي أن تكون أقرب إلى طلحة ابن عجمها والزبير زوج أختها ، وبخاصة أنه لم يكن في حساباتها أو حساباتها أن يقع قتال مرير على النحو الذي شاءه الله وقدره ، وإذا كان لا مناص من أن يصون الإمام بيعته الشرعية وسلطانه الذي آتاه الله بهذه البيعة ، فإنه نصح لخصومه قبل القتال وأعذر إلى الله وانتصح الزبير كما انتصح طلحة ولم تنهياً فرصة لأم المؤمنين قبل أن ينشب القتال المفاجئ الذي بدأه الدهماء من الفريقين فغلب المقدور على ما قدرته رضي الله عنها من العمل على الإصلاح بينهما ، ونطق لسان الحال من كل من الإمام وطلحة والزبير وأم المؤمنين :

قدرتُ أشياءً وَقَدَّرَ غيرَها حظُّ يخطُ مصابِر الإنسان

ومادام الإمام أَعَدَّرَ إلى الله بنصح خصومه قبل القتال ثم استعمل في القتال

حقه الشرعي حفاظاً على سلطانه ، وما دام طاححة والزبير وأم المؤمنين قد تابوا إلى الله من موقفهم فقد آخذوا أنفسهم بأنفسهم ولم يتركوا مجالاً للمؤاخذه جديدة من الباحثين في أمرهم فإننا نشيد بتقواهم ونسأله تعالى الرضا عنهم .

أمانة التبليغ :

وإليك ما يقوله العلامة العقاد في كتابه « الصديقة بنت الصديق » ، عن أمانة التبليغ التي اضطلعت بها في الإسلام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها :

« وقد نهضت السيدة عائشة بأمانة التبليغ والتعليم أحسن نهوض وأوفاه ، فتورعت عن كتمان شيء من الأشياء التي تسأل عنها ولها اتصال بقواعد الدين وأصول التطهير وشروط العبادات ونواقض الصلاة والصوم .

« فأسلوبها في تبليغ هذه الأحكام هو أسلوب التعليم ، وأسلوب أم المؤمنين في خطاب بناتها وبنبيها من المسترشدات والمسترشدين . ولم يكن في مقدورها أن تتوخى أسلوباً غير هذا الأسلوب ولو عرضت لأخص الأمور التي تسكت عنها النساء ، لأنها المرجع الذي لا يغني عنه مرجع في سنن النبي ومأثوراته وأعماله . فن الإخلال بالأمانة النبوية أن تسكت عن سُنَّة مطلوبة يعرضها السكوت للضياع .

« وقد تكون هذه السيدة الفضلى التي أفصحت عن كل فتوى نسوية سئلت عنها وهي ما تأذن لعمها في الرضاع أن يراها إلا بعد مراجعة النبي عليه السلام . فأسلوبها في تفصيل السنن النبوية والقواعد الشرعية إنما كان فريضة الأمانة وضريبة الوفاء ولم يكن شيمة الطبع واللسان . »

أم المؤمنين وصدق الرواية :

ويتعرض العلامة العقاد لصدق روايتها فيقول رحمه الله في الكتاب ذاته :

« وقد كانت بنت أبيها في أكثر من خصلة واحدة من هذه الخصال النادرة بين الرجال والنساء . ولكنها كانت أشبه ما تكون في خصلة الصدق التي بها

اشتهر ومن أجلها نُعت بالصدّيق ، وغلب هذا النعت عليه حتى أوْشك أن ينسى الناس اسمه الذى دعاه به أبواه . . .

« فى الغاشية التى أطبقت على العالم الإسلامى من جراء الخلاف على الخلافة تطايرت الأحاديث الموضوععة من هنا وهناك ، وتعهد أناس أن يصوغوا من عندهم حديثاً لكل حزب ينصره ويرضيه ويكبت خصمه ويخزيه . . .

« وكانت السيدة عائشة تشترك فى خصومات المتخاصمين على الخلافة باختيارها أو تساق إلى المشاركة فيها على كره منها ، وكانت هى أول من يُسمع له إذا روت حديثاً يدفع خصومها ويعزز أنصارها . ولكنها لم تنقل قط فى كل ما ثبت نسبته إليها حديثاً واحداً تمسه الشبهات من قريب أو بعيد ولا تؤيده الأسانيد الأخرى . . . ولهذا كانوا يروون عنها الأحاديث فيقولون : حدثتنا الصديقة بنت الصديق .

« ومن الصفات التى شابته فيها أباه : الذكاء المتوقد والبديهة الواعية ولم تقصر فيها عن شأو .

« فحسبها أنها روت للنبي عليه الصلاة والسلام أكثر من ألى حديث فى مختلف المسائل التى تدخل فيها الأحكام الشرعية والعظات الخلقية والآداب النفسية والأصول التى يرجع إليها فى الدين والعبادة . . .

« ومع هذا يروى الثقات أنها كانت تحفظ وتفقه وتفسر ، ولا يقتصر علمها على وعى الكلمات والعبارات ، حتى قال أبو موسى الأشعري رضى الله عنه : « ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علماً فيه » .

وقال عطاء بن أبى رباح : كانت أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأياً فى العامة . وقال مسروق الهمداني : « رأيت مشيخة رسول الله الأكاير يسألونها عن الفرائض (الموارث) » .

وقال عروة بن الزبير : « ما رأيت أحداً أعلم بفقهه ولا بطب ولا بشعر من عائشة » .

وهاك على سبيل المثال ما أوصت به معاوية حين طلب إليها النصيحة ،

فقد أرسلت إليه تقول : أما بعد فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
مَنْ التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومَنْ التمس رضاء
الناس بسخط الله وكَلَه الله إلى الناس .

ورع أم المؤمنين :

وفي طبقات ابن سعد أن موسى بن داود قال : سمعت مالك بن أنس يقول :
قُسِّمَ بيت عائشة باثنين ، قِسِّمَ كان فيه القبر وقسم كانت تكون فيه عائشة
وبينهما حائط ، وكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر بلا تحفظ ، فلما دفن
عمر رضى الله عنه لم تدخله إلا وهي جامعة عليها ثيابها .

وعن عائشة رضى الله عنها : ما زلت أضع خيمارى وأنفصل فى ثيابى^(١)
حتى دفن عمر فلم أزل متحفظة فى ثيابى حتى بنيت بينى وبين القبور جداراً .

أم المؤمنين والتزام البيت :

ونعود إلى مجريات الحوادث فنقول: إن أم المؤمنين رضى الله عنها عادت إلى
المدينة بعد معركة الجمل ، والتزمت بيتها المبارك الذى كان ينزل الوحي فيه ،
واسرّدت سعادتها بعيدة عن الخلاف والاختلاف ترجو الخير للأمة الإسلامية
كلها ، وودت أنها لم تشارك فى ذلك الخلاف الذى سالت فيه دماء غزيرة عزيزة
تألم لها الفريقان ، وغلب فى سفكها المقدور على الظن والتقدير . فما ظن القوم أن
يقع القتال المرير كما وقع ، بل ظنوا أن يصلوا بالتفاهم إلى كلمة سواء . وقد أوشك
التفاهم أن يتم فى سلام بين أمير المؤمنين وطلحة والزبير لولا أن تشابك الدهماء
كما سبق القول واندفعوا فى القتال فى فتنة عمياء ، فرد جيش أمير المؤمنين على الشر
بمثله صيانة لحقه وإبقاء لسلطانه على الخارجين عليه . وهو أول قتال يقع بين
المسلمين من الفريقين وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

(١) أى أخلع الحمار وأتخفت من الملابس ، فلما دفن عمر تخرجت لأنه غريب - أما
الرسول فزوجها وأما أبو بكر فأبوها - فحفظت وأبقت ثيابها عليها . فعاملتهم معاملة الأحياء ولو أنهم
فى القبور . وهذا من فقهها وذوقها وورعها رضى الله عنها .

أم المؤمنين تعاتب ابن عمر :

وقد بلغ من مرارة النفس عند أم المؤمنين من اشتراكها في معركة الجمل أنها - فيما روى ابن عبد البر - رصدت لابن عمر من يُعَلِّمها به إذا مر بها ، فلما مر بها وعلمت به ، قالت ادعوه ، فدعوه ، فقالت :

يا أبا عبد الرحمن ، ما منعك أن تنهاني عن مسيرى ، قال : رأيت رجلا غلب عليك ، وظننت أنك لا تخالفينه ، قالت : أما إنك لو نهيتني ما خرجت .

أم المؤمنين والأزدى :

كما روى الطبرى عن أبي جُنْدُب قال : دخلت على عائشة رضی الله عنها بالمدينة ، فقالت : من أنت ؟ قلت رجل من الأزد أسكن الكوفة ،

قالت : أشهدتنا يوم الجمل ، قلت : نعم ، قالت : لنا أم علينا ؟ قلت : عليكم ،

قالت : أفتعرف الذى يقول : يا أمنا يا خير أمٍ نعلم^(١) .

قلت : ذاك ابن عمى .

قال : فبكت حتى ظننت أنها لا تسكت .

يوم الجمل :

وكذلك روى ابن الأثير فى أسد الغابة أن متحدثاً تحدث إليها فذكر يوم الجمل ، فقالت : والناس يقولون يوم الجمل ؟ قال نعم ، قالت : ووددت لو أنى كنت جلست كما جلس صواحبي ، فكان ذلك أحب إلىّ من أن أكون ولدتُ من رسول الله بضع عشرة كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ومثل عبد الله بن الزبير .

(١) هذا من رجز ارتجز به الحارث بن زهير الأزدى وكان فى جيش أمير المؤمنين ، قاله حين

رأى قومه يسقطون قتلى وهم يتهافتون على خظام الجمل ، والرجز كاملاً هو :

يا أمنا يا خير أمٍ نعلم أما ترين كم شجاع يكلم

وتُختل هاتمه والمعصم

توبة نصوح :

وأنت ترى من ذلك أن نفس أم المؤمنين الزكية كانت نفساً كريمة لوامة متطهرة ، والندم توبة صادقة وأى توبة ، واللوم طهارة باطنة وأى طهارة . فقد توالى بعد معركة الجمل أحداث جسام كانت تستطيع أن تشارك فيها السيدة عائشة ضد الإمام على ، ولكنها لم تفعل. وهذا ما يؤيدنى فى دحض ما اتهمت به من عداوة أكيدة للإمام على بسبب شهادته فى حديث الإفك .

وقد رأيت ما كان من طلحة والزبير ، فقد بايع طاححة مرة أخرى قبل موته وقال لأحد جنود الإمام أبلغه أنى مبابيعه ، وانسحب الزبير من المعركة قبل أن يقع القتال قائلاً للأمير المؤمنين : لقد أذكرتنى ما أنسانيه الدهر، والله لو ذكرتها ما خرجت . ومن هنا أجمع العلماء على توبة الثلاثة فى رشد ورجوع للحق .

رأى العلامة العقاد :

ومع أن العلامة أنصف أم المؤمنين رضى الله عنها فى آخر بحثه إلا أنه فى بداية البحث خطأً الإمام فى مشورته فى حديث الإفك وخطأً أم المؤمنين فى خصومتها للإمام وربط بين هذه الخصومة وقصة الإفك ، فقال فى كتابه « الصديقة بنت الصديق » :

« فعلى قد أخطأه التوفيق فى نصيحته ، وعائشة قد أخطأها التوفيق فى مكافحته من أجل هذه النصيحة .

وإنك لتعجب معى من أن يربط العلامة العقاد بين مشورة الإمام وموقف أم المؤمنين منه كما فعل غيره ، مع أن ما انتهى إليه رحمه الله يكاد يتفق مع وجهة نظرى ويباعد بين الأمرين ، وإليك ما انتهى إليه ، فى ذلك الكتاب بعد قوله المتقدم :

« ولكننا إذا ذكرنا هذا ، كان علينا أن نذكر معه أنها ندمت على موقفها من يوم الجمل أشد ندامة ، فكانت تقول بقية حياتها :

« ليتنى ميتاً قبل يوم الجمل ، وكانت تقول : لَيْتَ كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنون عشرة وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل ، وكانت كلما خاض الناس فى حديث ذلك اليوم تبكى حتى تبل خمارها . ثم أضاف يقول فى صدق رحمه الله :

« وعلينا أن نذكر أنها صانت خصومتها عن كل كلمة نائية فى حق علىّ رضى الله عنه ، فلم تنهه بدم عثمان ولم تتجاوز بالتهمة بعض مَن بايعوه ، وقالت عنه مرة : إنه الصوم القوام ، وإنه أحب الناس إلى رسول الله .
« وعلينا أن نذكر أن المغريات بالاندفاع فى هذه الغاشية كثيرة :

« حدة فى الطبع ، ومفاجأة بتدراخلدة ، وبيئة مطبقة بالعداء لعلىّ ، وسعىّ حيث من أقرب الناس إليها وأقربهم إلى إقناعها .

« وإنها مع هذا أقدمت على مورد مُسبهم لا يتضح الشرُّ فيه ، وترددت هنالك بين لإقدام وإحجام ، واعتقدت أن الأمر لا يفضى إلى قتال ، وأصغت إلى دعوة الإصلاح ودعت إليه ، وهو حادث لا بدّ له من عبرة ، وأن عبرته لأحق عبر التاريخ الإسلامى بالتسجيل » .